النزعة الصوفية
عند ابن رجب الحنبلي

د.إبراهيم محمد رشاد إبراهيم
أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد
كلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

لقد كان للإمام ابن رجب الحنبلي صياغة جديدة للحياة الروحية وقواعد السلوك الذوقي، ولوجدانه وتجاربه الذاتية معان تتفق مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد كان منهجه منهج السلف في الوسطية بين الناس في كل القضايا، وكان يسلك مسلك السلف في التعليم والتعلم ونشر العلم ودعوته إلى العقيدة والشريعة الصحيحة، كذلك اتخذ مسلك السلف في بيان العقيدة بالأدلة وتأصيلها والرد على مخالفيهم ومناقشتهم، ورد باطلهم وهذا ما سوف يتضح من خلال موقفه من المتكلمين والفلاسفة والصوفية، فالصواب عنده ما عليه السلف الصالح من إقرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا الخوض في معانيها ولا ضرب مثل من الأمثال لها.

لقد كان ابن رجب الحنبلي أميناً في تطبيق المنهج السلفي، ومع ذلك لم يرفض التصوف جملة وتفصيلاً، بل انتقد فقط ما طرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك المرتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، من هنا تأتي أهمية دراسة آراء ابن رجب الحنبلي الصوفية.

فهذه الدراسة تحاول إلقاء الضوء على شخصية سلفية وبيان موقفه كسلفي من التصوف، مع بيان أنه لا توجد قطيعة بين الإتجاه السلفي والتصوف، بالإضافة إلى أن شخصية ابن رجب الحنبلي ونزعته الصوفية لم تلق اهتمامًا كبيرًا من الباحثين، لهذا فإننا نحاول توضيح الجوانب الصوفية والروحية عنده، وبيان موقفه كسلفي من التصوف، من خلال ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: الإتجاه النقدي عند ابن رجب الحنبلي، ونعرض فيه:

أولاً : التعريف بابن رجب الحنبلي

ثانياً : الإتجاه النقدي عند ابن رجب الحنبلي

المبحث الثاني: التوحيد والعبودية عند ابن رجب الحنبلي.

المبحث الثالث: الولاية والنبوة عند ابن رجب الحنبلي.

وذلك من خلال منهج تحليلي نقدي، حيث نقوم بعرض آراء ابن رجب وتحليلها ثم مقارنتها بآراء الصوفية سواءً السابقين أم اللاحقين عليه، مع عرض نقده لأهم تيارات الفكر الإسلامي من متكلمين أو فلاسفة وحتى انتقاداته لبعض التيارات الصوفية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

الاتجاه النقدي عند ابن رجب الحنبلي

أولاً: التعريف بابن رجب الحنبلي

هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي المذهب الملقب بزين العابدين والمكني بأبي الفرج، والمعروف بابن رجب الحنبلي[١] ولد في مدينة بغداد في ربيع أول سنة ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة[٢] ولقب بالشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بابن رجب الحنبلي واشتهر بهذا الاسم، ويقال إنه سمي بابن رجب ؛ لأنه ولد في شهر رجب[٣] وكان أبوه مقرئاً محدثًا، وهو شهاب الدين أحمد ولد ببغداد عام ٧٠٦هـ، ولد ونشأ بها وسمع من مشايخها، وقرأ بالروايات ثم رحل إلى دمشق بأولاده سنة ٧٤٤هـ فسمع بها وبالحجاز وبالقدس وجلس للإقراء بدمشق[٤] كذلك كان جده مهتمًا بالحديث وتعلم علي يديه الناس وهذا ما يقوله ابن رجب" قُرأ علي جدي أبي أحمد رجب بن الحسن غير مدة ببغداد وأنا حاضر في الثالثة والرابعة والخامسة"[٥].

هكذا كانت لأسرته التي اهتمت بالعلم لها دورٌ كبيرٌ في ثقافة ابن رجب الحنبلي بالإضافة إلى أنه تلقى العلم على شيوخ كانت لهم شهرة علمية في مختلف البلاد الإسلامية ولقد ذكر هو عدداً منهم: الشيخ عبد الرحيم بن محمد بن أبي بكر بن إسماعيل الذريتي، و شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الذرعي الشهير بابن القيم الجوزية[٦].

---

(1) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ب . ت، ص١١٨

(2) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج٣، ص٣٢١

(3) ابن العماد: شذرات الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د. ت، ج٥، ص٣٣٩ أيضًا ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤط، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٩م، ج١، ص٩

(4) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٢٥

(5) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة، تصحيح : محمد حامد الفقي، دار إحياء الكتب العلمية بيروت لبنان، ب . ت، ص٢١٤

(6) المصدر نفسه، ص٤٣٦، ولد ابن القيم في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة في قرية زرع بدمشق، وعرف بابن القيم، وكذلك قيم الجوزية، وذلك لأن والده كان قيمًا على مدرسة تدعي الجوزية، وهي مدرسة أنشأها محي الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن على الجوزي المتوفي عام ٦٥٢ه بدمشق، ولقد أم بها ابن القيم لأن أباه كان قيمًا عليها أي ناظرًا عليها، انظر: شعيب الأرنؤوط: مقدمة تحقيق كتاب زاد الميعاد لابن القيم، ج١،ص١٥، وهو غير ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ه وصاحب كتاب تلبيس إبليس، وصفوة الصفوة، أما ابن قيم الجوزية فقد توفى ليلة الخميس الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١ ه انظر ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة، ص٤٥١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما عن تلاميذه فمنهم الفقيه المحدث القاضي عز الدين محمد بن بهاء الدين علي بن عز عبد الرحمن بن محمد بن التقي خطيب الجامع الأموي(**ت ٨٢٠هـ**) والقاضي الحنبلي شمس الدين محمد بن خالد بن موسى الحمصي والمعروف بابن زهرة، وهو أول حنبلي قرأ علي ابن رجب(**ت ٨٣٠هـ**)[٧].

وشهد له ابن حجر العسقلاني فقال عنه "أنه ماهر في فنون الحديث، أسماءً ورجالًا وطرقًا وإطلاعاً على معانيه، وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وكان لا يخالط أحدًا ولا يتردد على أحد، وتخرج على يديه أغلب أصحابنا"[٨] وقال عنه ابن العماد أنه "الشيخ الإمام العلامة الزاهد القدوة، البركة الحافظ، العمدة الثقة الحجة، الحنبلي المذهب[٩].

أما عن مؤلفاته فقد تنوعت بين الحديث والفقه والتصوف، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة إطلاعه وقدرته على التأليف ودرايته بعلم الحديث، ومن أهم مؤلفاته: "كتاب العلوم والحكم والحديث" شرح فيه خمسين حديثًا من الأحاديث النبوية الشريفة شرحًا يدل على علمه ودرايته بعلم الحديث، وله في الفقه كتاب "القواعد الفقهية" وكتاب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" والأول يدل على معرفته التامة بالمذهب السلفي، والثاني ينقل فيه كثيرًا من أقوال السابقين عليه، وله كتاب في التراجم وهو "ذيل طبقات الحنابلة"، أما في الزهد فله كتاب "كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة" ومجموع الرسائل، وهو أربعة أجزاء، و"فضل علم السلف على علم الخلف"[١٠].

ولقد توفي الإمام ابن رجب الحنبلي في شهر رجب سنة خمس وتسعين وسبعمائة بدمشق[١١].

ثانياً: النزعة النقدية عند ابن رجب الحنبلي

لقد وقف ابن رجب الحنبلي موقفًا نقديًا لمن سبقه من المتكلمين، وذلك لاعتمادهم على الجدل والبراهين العقلية في إثبات التوحيد، وكان في نقده لهم مخلصًا للمنهج

---

(7) ابن العماد : شذرات الذهب، ج٧، ص١٩٥

(8) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ج٣، ص١٧٦.

(9) ابن العماد : شذرات الذهب، ج٥، ص٣٣٩

(10) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٤٠، أيضاً: خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م، ج٣، ص٢٩٥

(11) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٤١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلفي[*] من حيث تقديسه للنص الديني وتقديمه له عما عداه، فهو لم يأخذ لنفسه طريقًا مختلفًا عنهم، بل صار على نفس الاتجاه من خلال التقيد بنصوص الكتاب والسنة، والتقيد بالمأثور عن الصحابة والتابعين في معاني القرآن والحديث، وبما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والاجتهاد على تمييز الصحيح من السقيم أولًا ثم الاجتهاد

(*) يقول ابن منظور في لسان العرب سلف يسلف سلفاً : أي تقدم وقال السالف أي المتقدم، والسلف والسلفية هم الجماعة المتقدمون، والسلف له معنيان : كل شيء قدمه العبد من عمل صالح، والسلف أيضًا من تقدمك من أبائك الذين هم فوقك في السن والفضل، وسلف الإنسان من تقدمه بالموت من أبائه وقرابته، ولهذا السبب سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح . انظر: ابن منظور : مادة سلف في لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ج٣، ص٢٦٨ وأيضًا ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، المجلد الثالث، الطبعة الأولي، ١٩٩١م، ص٩٥ حيث ذهب إلى أن كلمة سلف تعني السين واللام والفاء أصل يدل على التقدم والسبق، ولقد قيل أن المراد بالسلف: الصحابة والتابعون والعلماء بأصول السنة وطرائقها، وهم حراس العقيدة وحماة الشريعة الواعون لأصولها العاملون بها قولاً وعملاً واعتقادًا وباطنًا د. سيد عبد العزيز السيلي: العقيدة السلفية بين الإمام أحمد بن حنبل والإمام بن تيمية، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ص٢٥ وقد يطلق السلف شاملاً جميع المجتهدين في الدين، وعلى هذا الاصطلاح يدخل في السلف كل مجتهد من علماء الإسلام في كل عصر من العصور، حتى ولو لم يكونوا من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين. التهانوي : مادة سلف، بكشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٧م، ص١٥.

لقد لجأ بعض الباحثين حين التعريف بالسلف أن يحددهم زمانياً بأنهم من عاشوا قبل القرن الخامس الهجري د. سيد عبد العزيز السيلي: العقيدة السلفية بين الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية، ص٢٦ وذهب الشيخ محمد أبو زهرة إلى أن السلف ظهروا في القرن الرابع الهجري وكانوا من الحنابلة، وزعموا أن جملة أرائهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف وحارب دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري وأحياه شيخ الإسلام ابن تيمية، وتشدد في الدعوة إليه، ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد تعرض هؤلاء الحنابلة للكلام في التوحيد وصلة ذلك بالأضرحة، وتكلموا في آيات التأويل والتشبيه. انظر الإمام محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د . ت، ص١٧٧.

أما عن قواعد المنهج السلفي فهي كما يذكرها د. مصطفى حلمي: تقديم الشرع على العقل، فالقرآن والحديث أولاً ثم الاقتداء بالصحابة، فهم أهل الحديث وحفاظه ورواته وعلماؤه المتبعون للآثار فهم يتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدءون بالشرع ثم يخضعون العقل له، ومن ثم فإنهم يقدمون الرواية على الدراية والنظر العقلي، أما عن القاعدة الثانية عندهم فهي رفض التأويل الكلامي، والقاعدة الثالثة : هي الاستدلال بالآيات والبراهين القرآنية. انظر د. مصطفي حلمي : قواعد المنهج السلفي، دار الدعوة، القاهرة، الطبعة الأولي،١٩٩١م، ص١٨٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الوقوف على المعني والفهم ثانيًا[١٢]، ولهذا اعتبر الدخول في كلام المتكلمين شرًا محضًا، ومن دخل في شيء من كلامهم تلطخ به[١٣].

وكان ابن رجب الحنبلي هو وغيره من أئمة السلف يحذّرون من أئمة الكلام، ويوجهون النقد لهم، ومن الفرق التي وجه ابن رجب نقده لها المعتزلة، وخاصةً رأيهم في مشكلة الذات والصفات ونفيهم وجود صفات قديمة لله تعالى ؛ لأن إثبات الصفات القديمة له هو إيجاد قدماء مع الله، فقالوا بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف لذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعاني قائمة ؛ لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الألوهية[١٤].

ولقد اعتبر ابن رجب أن الكلام في الذات والصفات أشد خطرًا من الكلام في القدر، لأن الكلام في القدر هو عبارة عن الكلام في أفعاله، وهذا الكلام هو كلام في ذات الله وصفاته[١٥] ولقد ذهب إلى أن هؤلاء ينقسمون إلى فرقتين:

الفرقة الأولى: يري أنهم نفوا كثيرًا مما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله تعالى؛ لأن ذلك يستلزم عندهم التشبيه بالمخلوقين، وذلك مثل قول المعتزلة في مسألة رؤية الله، فعندهم لو رؤيا لكان جسمًا، فقالوا أنه لا يُرى في جهة، وكذلك قولهم: لو كان له كلام يسمع لكان جسما ولهذا نفوا الاستواء، وزعموا أن ذلك تنزيهًا لله عما تقتضي العقول تنزيهه عنه وزعموا استحالة أن

يوصف الله عز وجل بهذه الصفات[١٦] لذلك أجمعوا على نفي رؤية الله في الآخرة

---

(12) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف، تصحيح الشيخ إبراهيم حسن الإمبابي الشافعي مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٤٧ه، ص١٥

(13) المصدر نفسه، ص١٤

(14) الشهرستاني : الملل والنحل، ج١، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٦م ص٥٧

(15) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف، ص١٤

(16) ابن رجب الحنبلي: فضل علم السلف على علم الخلف، ص٨، لقد أوّل المعتزلة جميع الآيات التي تدل على الاستواء ويتضح هذا من قول الزمخشري أن قوله تعالى﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ سورة طه، آية : ٥ لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك، مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوي فلان على العرش، يريدون الملك وإن لم يقعد على السرير ألبتة انظر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج٣، تحقيق يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة، د . ت، ص١٣٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعتبروه أصلاً من أصولهم(*) لأن الرؤية في نظرهم تنفي عن الله الصفات الإلهية، ذلك لأن المعتزلة تتفق على أن الله واحد ليس كمثله شيء، وأن الله ليس بجسم ولا شخص ولا عرض ولا جوهر، ولا يجري عليه الزمان، ولا يجوز عليه الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم(١٧).

ولقد استدل المعتزلة على قولهم بنفي رؤية الله تعالي بأدلة عقلية ونقلية، أما الدليل العقلي فقد رأوا أنه إذا انتفت الجسمية انتفت معها الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفت رؤية الناس له تعالى إذ كل مرئي في جهة من الرائي، ولابد للرؤية من شروط كالضوء وكون المبصر ذا لون، وذلك كله محال في جانب الله، وانتهوا من هذا إلى عدم إمكان رؤية الله، وأولوا كل ما يظهر خلاف ذلك من آيات، كما أنكروا كثيرًا من الأحاديث التي تدل على الرؤية، وقالوا إنها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا توجب العلم إذ عارضها القرآن، ولهذا قالوا رؤية الله بالأبصار محال، إنما يراه المؤمنون ويعلمونه بقلوبهم(١٨)أما الدليل النقلي فقد استدل المعتزلة على قولهم بنفي الرؤية بقوله تعالى﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١٩) فهم يرون أن الإدراك هو الإحاطة المنبئة عن إدراك الغاية والرب تعالى تقدس عن التحديد والنهاية(٢٠).

يمكن القول أن محاولة المعتزلة تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين، هو الذي دفعهم إلى تصور الصفات الإلهية على هذا النحو، وذلك لكي ينفوا أدني مشابهة أو مماثلة بين الله والإنسان(٢١) ولهذا انتقد الأشاعرة موقفهم من رؤية الله؛ لأنهم قد أثبتوا الصفات لله تعالى، ومن ثم فإنهم قد أثبتوا رؤية الله، حيث يري الأشعري "إن كل مالا تصح رؤيته لم يتقرر وجوده كالمعدوم وكل ما صح وجوده جازت رؤيته كسائر الموجودات، فالله موجود وبالتالي فهو مرئي"(٢٢).

(*) أجمعت المعتزلة على أصول خمس لا يكون الإنسان معتزليًا إلا إذا آمن بهذه الأصول الخمسة وهي: التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الخياط : الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، تحقيق د. نيبرج، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٨م، ص١٢.

(17) د. فيصل بدير عون: علم الكلام ومدارسه، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة،١٩٨٢م، ص٨٧، أيضاً د. إبراهيم محمد إبراهيم صقر : دراسات في علم الكلام، مكتبة دار العلم، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٣١

(18) أحمد أمين : ضحي الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٢٥

(19) سور الأنعام، آية : ١٠٣

(20) د. إبراهيم محمد إبراهيم صقر : دراسات في علم الكلام، ص١٣٢

(21) د. أحمد محمود صبحي : في علم الكلام، ج١، المعتزلة، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م، ص١٢٦

(22) أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٥٠م، ج٢ ص١٢٣ أيضًا د. أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، ج٢، الأشاعرة، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، الطبعة الرابعة، د. ت، ص١٠٢

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفرقة الثانية: يذكر ابن رجب الكثير من الطوائف التي أثبتت الصفات بأدلة عقلية، فمنهم من أثبت هذه الصفات كالجسم إما لفظاً وإما معنًى وهو مسلك الكرامية، ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة وغير ذلك(٢٣).

أي أن وصف الله بهذه الصفات لم يتفق مع فكرة التوحيد عند ابن رجب ؛ لأن العقل عنده غير كاف لإثبات الوحدانية بمعزل عن الشرع، كما عارض أيضًا البدع التي ظهرت بعد عصر الصحابة، كإنكار المعتزلة للقدر وضرب الأمثال لله، لأنه قد ورد النهي عن الخوض فيها، وذهب إلى أن النهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه منها:

١- الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية كقول القدرية لو قدر وقضي ثم عزب لكان ظالماً، وقول من خالفهم إن الله جبر العباد على أفعالهم.

٢- الخوض في سر القدر وقد ورد النهي عنه عن علي(**رضي الله عنه**) وغيره من السلف ؛ لأن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك(٢٤).

ولهذا فقد ذهب ابن رجب الحنبلي إلى أن الإيمان بالقدر يكون على درجتين:

الأولي: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يفعله العباد من خير أو شر، وطاعة أو معصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومنهم مَن هو مِن أهل الجنة، ومنهم مَن هو مِن أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاءً لأعمالهم على ما سبق في علمه وكتابه.

الثانية: أن الله تعالى خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان وشاءها منهم فهذه الدرجة يثبتها أهل السنة والجماعة وتنكرها القدرية، والدرجة الأولى التي أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني وكعمرو بن عبيد(٢٥).

ويرى ابن رجب أن طريقته في التوحيد ليست عين طريقة المتكلمين ولا طريقة الحكماء الذين تكلموا في الإلهيات، ويشيد بالسلف الصالح ويرى أن "الصواب ما عليه

---

(23) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على الخلف، ص٨، والكرامية هم أتباع محمد بن كرام، وهم ثلاثة أصناف : حقائقية، وطوائفية، وإسحاقية، وهذه الفرق الثلاثة تعد فرقة واحدة، وزعيمها المعروف هو أبو عبد الله محمد بن كرام السجستاني الزاهد شيخ الطريقة الكرامية. انظر البغدادي: الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٣م، ص٢٢٧، ولقد دعا ابن كرام أتباعه إلى القول بالتجسيم، وزعم أن الله جسم له حد ونهاية من تحته، والجهة التي منها يلاقي عرشه، وهذا شبيه بقول الثنوية إن معبودهم الذي رسموه نوراً يتناهى من الجهة التي تلاقي الظلام ووصف ابن كرام معبوده بأنه جوهر كما زعمت النصارى. البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٢٢٧.

(24) المصدر نفسه، ص٩

(25) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٤٣

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك ألبتة خصوصًا الإمام أحمد، ولا خوض في معانيها ولا ضرب مثل من الأمثال لها، بل يجب الاقتداء بهم كالإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ؛ لأن هؤلاء لا يوجد في كلامهم شيء من جنس كلام المتكلمين"[٢٦].

هذا عن موقفه من المتكلمين أما عن موقفه من الفلاسفة فقد اعتبر أن الدخول في كلامهم ومناقشته شرًّا محضًا، لذا يجب البعد عنه ؛ لأن من دخل في شيء منه تلطخ به، بالإضافة إلى أن كلامهم من جنس كلام المتكلمين لا يخلو من الخطأ والتناقض[٢٧].

أما عن موقفه من الصوفية، فقد وقف موقفًا معارضًا من بعض الاتجاهات الصوفية، خاصة أصحاب القول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، كما أنه قد عاب عليهم أمورًا كثيرًة خالفت التصوف السلفي الذي كان ينادي به، فقد رأي أن البدع الذي ظهرت في الأزمنة المتأخرة جاءت نتيجة لمخالفة علوم السلف والبعد عنها، فقد كثر اختلاف علماء المسلمين في التوسع في الكلام في المعاملات وأعمال القلوب التي لم تنقل عن الصحابة، وهو الأمر الذي دفع الإمام أحمد بن حنبل إلى توجيه النقد إليهم، ويستدل بقول ابن مسعود رضي الله عنه" إنكم قد أصبحتم اليوم علي الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول"[٢٨].

أي أنه يري أن مخالفة منهج السلف قد أدي إلي ما حدث من البدع بعد عصر الصحابة والتابعين من الكلام في الحقيقة والذوق والكشف وأن الحقيقة تنافي الشريعة، ثم تطور الأمر بعد ذلك علي أيدي بعض الصوفية فنادوا بأن المعرفة وحدها تكفي مع المحبة، وأنه لا حاجة للأعمال التي تعد عندهم بمثابة الحجاب، كما أن الشريعة يحتاج إليها العوام، بالإضافة إلى الكلام في الذات والصفات[٢٩].

---

(26) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف، ص٨

(27) المصدر نفسه، ص٩

(28) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٣٧٨

(29) المصدر نفسه، ص٣٨٨، لقد ذهب ابن حزم إلى أن هناك طائفة من الصوفية قد ادعت أنه من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من صيام وصلاة وزكاة وغير ذلك، ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق . د. عبد الرحمن خليفة، مطبعة صبيح، القاهرة، ١٣٤٧ه، ج٤، ص١٧٠ ولقد أرجع الطوسي سبب غلطهم إلى سببين: أولهما هو جهلهم بالأصول وقلة معرفتهم بعلم الشريعة، والثاني : يتعلق بسبب سوء فهمهم للحرية والعبودية، وتوهمت أن العبد إذا وصل إلى الله فقد صار حرًا، وإذا صار حرًا سقطت عنه العبودية، وبالتالي فهو غير مطالب بالطاعة أو العبادة " انظر الطوسي: اللمع، تحقيق د. كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص٣٧٢

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويري ابن رجب أنه قد اتسع الكلام في هذا الباب مما أدي إلي الوقوع في الزندقة والنفاق، بالإضافة إلي قولهم بأن أولياء الله أفضل من الأنبياء، والتنقيص بما جاء به الرسل من الشرائع وإلي دعوي الحلول والاتحاد، والقول بوحدة الوجود وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان[٣٠] مثل قولهم بأن الغناء والرقص يحدث ترقيق للقلوب، أو أنه يراد به رياضة للنفوس، وبعضهم زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس، وغير ذلك مما لم تأتِ به الشريعة، كما أنها تصد الناس عن ذكر الله وعن الصلاة، فهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا[٣١].

كما أنهم قد انصرفوا عن العلم وأخذوا يتحدثون عن الوساوس والخطرات مما دفع الإمام أحمد بن حنبل إلى نقدهم وذمهم، حيث اعتبر أن كلامهم لا يستند إلى دليل شرعي بل إلى مجرد رأى وذوق[٣٢].

ولقد لاحظ ابن رجب الحنبلي إسرافهم في العبادات كالصوم المستمر الذي يؤدي إلي إضعاف البدن، فيعجز صاحبه عن القيام بحقوق الله، ويبرهن علي صحة رأيه بنهي الرسول(ﷺ) عن تعذيب النفس بتحملها بما لا تضيق، والمثال على ذلك عندما جاءه أعرابي وقد تغير فلم يعرفه سأله عن حاله ؟ قال: ما أكلت بعدك طعامًا بنهار، فقال له النبي(ﷺ) ومن أمرك أن تعذب نفسك ؟ ومن ناحية أخري يدلل أن النبي(ﷺ) كان يجوع يومًا ليتفرغ لعبادة ربه عز وجل، ويشبع يوماً فيشكره بعد أن عرض عليه ربه بجبال مكة ذهبًا، ولكنه اختار لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين مقامي الشكر والصبر والرضا[٣٣] كما أن الإسراف في العبادات قد دفع بابن رجب الحنبلي إلى القول بعدم الاقتداء بالأوائل، بل نهي عن متابعتهم بالرغم من أنهم قوم صدق واجتهاد ؛ لأن الكثير منهم يحملون أنفسهم من الأعمال ما يضر بأجسادهم ويحتسبون أجر ذلك عند الله، وهؤلاء قوم صدق واجتهاد ولكن لا يقتدي بهم[٣٤] فالعبادات وكما يري ابن رجب ينبغي أن تتم وفقًا لحكم الله ورسوله

---

(30) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف، ص١٤

(31) المصدر نفسه، ص١٤

(32) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٣٧٠

(33) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص١٨٢، ولقد وجه الطوسي نقده للذين تركوا التوسع من الدنيا بالتقشف والتقلل بقولهم"أن كل من رفق بنفسه أو تناول شيئاً من المباحات أو أكل شيئًا من الطيبات كان ذلك علة وسقوطًا من المنزلة، فقد غلطوا في ذلك ؛ لأن العلة كائنة في التقلل والتقشف، كما أن العلة كافة في الترفع والترفه" انظر الطوسي: اللمع، ص٣٦٦

(34) المصدر نفسه، ص٣٥٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما عدا ذلك فهو باطل مردود، فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة فعمله باطل مردود عليه، وهو ما لاحظه على الصوفية المعاصرين له الذين تقربوا إلى الله بسماع الملاهي أو بالرقص أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما شابه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله التقرب بها[٣٥].

على الرغم من نقد ابن رجب هنا للصوفية إلى أنه بالرغم من ذلك يستشهد بآرائهم في العديد من مؤلفاته، فعلى سبيل المثال يستشهد برأي الإمام الجنيد عندما يقول علمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدي به في علمنا هذا، كما أنه يستشهد بقول أبو سليمان الداراني أنه لم تمر بي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين هما الكتاب والسنة[٣٦] فهو لم يكن خصمًا للتصوف والصوفية بوجه عام، لأنه قد أثني على التصوف السني وهو التصوف المقيد بالكتاب والسنة، كما أثنى على أعلامه مثل الإمام الجنيد وأبو سليمان الداراني، وإن كان قد انتقد بعض الصوفية، فقد انتقد طريقتهم في إثبات التوحيد، فطريقتهم قد أرهقت الذهن دون الوصول إلى نتيجة محددة، وهؤلاء هم أصحاب القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وهؤلاء هم الذين وجه نقده لهم.

(35) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٩٢
(36) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف، ص١٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

التوحيد والعبودية عند ابن رجب الحنبلي

أولاً : التوحيد

التوحيد هو إيمان العبد بأن الله تعالى هو الواحد المنفرد بالخلق والتدبير، ونفي المثل عنه والتوجه إليه وحده بالعبادة، ويمكن القول بأن هناك عدة أنواع للتوحيد تكلم عنها ابن رجب منها:

١- توحيد الربوبية

يري ابن رجب أن توحيد الربوبية هو أساس أنواع التوحيد الأخرى "لأن الله هو الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بالتوجه إليه بالعبادة والخضوع، وهو المستحق وحده للحمد والذكر والدعاء والرجاء والخوف، والعبادة كلها لا تصح أن تكون إلا لمن له الخلق والأمر كله، كذلك فإن الخالق المدبر هو الجدير وحده بصفات الجلال والجمال والكمال(*)؛ لأن هذه الصفات لا تكون إلا لرب العالمين إذ يستحيل ثبوت الربوبية والملك

(*) الجميل هو ما يخاطب في النفس الإحساس بالجمال أو عاطفة الجمال، وقيل هو الجذاب الذي يشد الناظر إلى صورته يتأملها ويتعرف على معانيها، أو هو المبهج الذي يدخل السرور إلى نفس متأمله، والجميل يوقظ الحب في النفس، والجميل من أسمائه تعالى، وجماله هو أوصافه في لطفه ورحمته انظر : الجرجاني : التعريفات تحقيق د٠ عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١م، ص٨٨، د. عبد المنعم الحفني : مادة جمال، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، ص٢٥٤، وانظر أيضاً : أنور فؤاد أبى خزام : مادة جمال بمعجم المصطلحات الصوفية، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ص٦٨، ويعد الجمال صفة أزلية لله تعالى د. جميل صليبا : مادة جمال، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، بدون تاريخ، ج١، ص٤٠٧ والفرق بين الجلال والجمال أن الجلال هو الجمال الشديد الظهور والتجلي، وكل جمال يوصف به الشيء فإن شدة ظهوره تسمى جلالًا، كما أن جلال الشيء في مبادئ ظهوره يسمى جمالًا، ولذلك قيل أن الجليل هو الرائع الذي يكون في غاية الجمال والكمال والبهاء، وإذا كان كل جليل جميلًا، فليس كل جميل جليلًا، د. جميل صليبا : مادة جلال، بالمعجم الفلسفي، ص٤٠٤، كما أن الجميل يتصف بالتناهي والجليل بعدم التناهي، والجمال المطلق والجلال لا يكون شهوده إلا لله وحده، حيث الجلال هو ذاته، باعتبار ظهوره في أسمائه وصفاته، والجمال هو أوصافه العلية وأسمائه الحسنى. د. عبد المنعم الحفني : مادة جلال بالمعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ص٢٥٣. أما كمال الله تعالى هو ماهيته التي لا يبلغها الإدراك، فالإدراك لا يبلغ ما يتناهى، وكمال الله تعالى لا نهاية له، وهو لا يشبه كمال المخلوقات، لأنه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل كسائر المخلوقات د. يوسف زيدان : عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، سلسلة أعلام العرب، رقم ١٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨م، ص١٥٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أقواله وأفعاله[٣٧].

أي أن توحيد الله في الربوبية عند ابن رجب الحنبلي معناه أن يشهد العبد بأن الله تعالى منفرد بالعبودية، وأنه رب كل شيء وهو المحيي والمميت وعلى كل شيء قدير، وأكثر العباد لا ينكرون وجود الله وربوبيته على الخلق، حتى المشركون أنفسهم كانوا يقرون بربوبية الله، مع الإشراك في عبادة الأصنام والأوثان، فكانوا يعدون هذه الأصنام وسطاء بينهم وبين الله وهذا ما وضحه القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[٣٨].

٢- توحيد الإلوهية

توحيد الإلوهية هو إفراد الله عز وجل بأفعال العباد، والاعتقاد بأن الله وحده هو المستحق للعبادة، ويجب أن تكون العبادة بجميع أنواعها باطنها وظاهرها لله تعالى، وهذا النوع من التوحيد هو الذي دعت إليه جميع الأنبياء والرسل، فهو وكما يذهب ابن رجب "أول دعوة الرسل وآخرها ومن أجله خلق الله الخلق كما قال تعالى﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٣٩].

وهذا هو معني قول العبد لا إله إلا الله، فإن الإله هو المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، ولذلك فإن هذا النوع من التوحيد يتطلب أمورًا كثيرة منها: إخلاص المحبة لله عز وجل، فلا يتخذ العبد نداً لله في الحب، يحبه كما يحب الله أو يقدمه في المحبة على حب الله عز وجل فمن فعل ذلك كان من المشركين كما قال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾[٤٠].

ومنها أيضاً إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه كما قال تعالى﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[٤١].

---

(37) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، تحقيق ناصر النجار، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٧٠

(38) سورة الزمر، آية : ٣

(39) سورة الذاريات، آية : ٥٦

(40) سورة البقرة، آية : ١٦٥

(41) سورة يونس، آية : ١٠٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنها أيضاً إفراد الله تعالى بالخوف منه، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها فخاف منها فقد أشرك بالله لقوله تعالى:﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٤٢).

ومنها أيضاً وجوب إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادات من صلاة وركوع وسجود وصوم وجميع العبادات الأخرى من نذر واستغفار وغير ذلك(٤٣).

هذا هو النوع الثاني من التوحيد عند ابن رجب وهو توحيد الإلوهية وفيه إفراد الله تعالى وحده بأفعال العبد من محبة وخوف ودعاء وتوكل ورجاء وعبادة لله تعالى.

٣- توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات هو النوع الثالث من أنواع التوحيد عند ابن رجب الحنبلي، ويقوم على تنزيه الله تعالى عن صفات الخلق، وهو كما يرى "أن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال ومنزه عن جميع صفات النقص والعيوب وأنه متفرد عن جميع خلقه بذاته وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله(ﷺ) من الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تحريف ألفاظها أو معانيها ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل"(٤٤).

هذه هي الأنواع الثلاثة للتوحيد كما عبر عنها ابن رجب، وهو في تقسيمه يستشهد بالنصوص الدينية في القرآن الكريم والسنة النبوية، وإذا رجعنا إلى حديث الصوفية عن التوحيد وأنواعه سوف نجد بعض الصوفية قد ذهب إلى أن هناك ثلاثة أنواع للتوحيد، فها هو الإمام الجنيد(ت ٢٩٧ه) يقسم التوحيد إلى ثلاث مراتب هي:

المرتبة الأولى: توحيد العامة وهو الإقرار بالوحدانية لله وإنكار الأرباب والأنداد.

المرتبة الثانية: توحيد أهل الظاهر وهو إقرار الوحدانية لله وإنكار الأرباب والأنداد كالعامة، بالإضافة إلى إقامة الأمر وانتهاء عن النهي.

---

(42) سورة يونس، آية : ١٠٧

(43) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٢، ص٣٦٩

(44) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٤، ص٤٠٢

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المرتبة الثالثة: وهو توحيد الخاصة، وهي أن يكون العبد شبحًا بين يدي الله عز وجل تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته[٤٥].

لقد استدل ابن رجب الحنبلي على التوحيد من خلال النظر والتأمل في الكون، إذ يستدل بوجود التناسق والانسجام بين أنواع الموجودات بلا خلل، والانتظام البديع الذي جعل هذا الكون على هيئة مدينة رائعة، فكل ما في الكون يدل على صانعه ويدل على صفاته، ففي التعاون بين الموجودات المختلفة والانتظام والتناسق بينها آيات دالة على التوحيد[٤٦].

ويستشهد ابن رجب في إثبات الوحدانية لله من قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٤٧] وقوله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[٤٨].

لقد ذهب ابن رجب إلى أن القرآن الكريم قد وضح أن من يتأمل في خلق السموات والأرض والتناسق التام بينهما، ويفكر في ترتيب ونظام هذا الكون يستطيع أن يصل إلى معرفة صفات الله الحق الخالق المتفرد المبدع لهذه الموجودات والكائنات، فيقوى إيمانه بالله ويقر بتوحيده ويدرك حكمته في خلقه وأمره وعظمة ربوبيته وقدرته[٤٩] ويدرك أن خالق هذا العالم واحد أحد صمد متفرد بذاته وصفاته[٥٠].

الله تعالى إذًا عند ابن رجب قد نزه نفسه سبحانه عن أن يكون من أجناس المخلوقات، فما من مخلوق إلا وله كفء هو وزوجه ونظيره، وعدله ومثيله كما قال تعالى﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥١] فلو كان الحق من جنس شيء من

---

(45) القشيري : الرسالة في التصوف، مطبعة أولاد صبيح، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٩٧ ولقد ذهب الهروي الأنصاري وهو أبو إسماعيل بن محمد بن علي الأنصاري(ت ٣٩٦ه) وكان حنبلي المذهب وله مؤلفات في التصوف منها طبقات الصوفية، ومنازل السائرين. انظر د. عبد المنعم الحفني : الموسوعة الصوفية وأعلام التصوف، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٤٠٣ إلى أن هناك ثلاث مراتب للتوحيد هي : توحيد العامة، وهو الذي يصح بالشواهد، وتوحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق، وتوحيد خاصة الخاصة، وهو توحيد قائم بالعدم. أنظر: الهروي الأنصاري : التمكين في شرح منازل السائرين، تحقيق . محمود أبو الفيض المنوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، د . ت، ص٣٤٦.

(46) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٤٤١

(47) سورة لقمان، آية : ٢٥

(48) سورة آل عمران، آية :١٩٠

(49) ابن رجب : مجموع الرسائل، ج١، ص١٦١

(50) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٠٢

(51) سورة الذاريات، آية : ٤٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الأجناس لكان له كفء وعدل وهو ما نفاه الشرع والعقل، فلا كفء له في من صفاته ولا في ربوبيته ولا في وحدانيته، بالإضافة إلى أنها الصورة التي تضمنت تنزيهه وتقديسه عن الأصول والفروق والأمثال[٥٢].

كما يذهب ابن رجب إلى أنه من خلال التأمل والنظر في جزئيات الإنسان وقدراته ووظائف أعضائه، بالإضافة إلى العناية الإلهية بالإنسان في أطوار المراحل التي يمر بها، وخلق جميع الموجودات من أجله، دليل على أن الذي خلقه حكيم قدير متصف بالوحدانية[٥٣].

ولقد ذهب ابن رجب إلى أن الإنسان إذا استقر التوحيد في قلبه، فإن التوحيد يثمر له ثماراً دنيوية تتمثل في الراحة النفسية والسكينة القلبية، كما يدخل في قلبه نور يبدد الذنوب ويمحو الخطايا، كما أنه يثمر له في الآخرة ثمارًا أخروية تتمثل في رضا الله حتى ينعم بالسعادة الأبدية فتحقيق التوحيد يعد عند ابن رجب من أفضل الأعمال، لأنه يرفع صاحبه إلى معالي الأمور، ويرفع هامته فوق حطام الدنيا، ويملأُ قلبه بالإيمان واليقين، فمن أتي بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله " فقد حقق التقوى والإخلاص، والبراءة من الشرك[٥٤] كما أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، والخوف والرجاء منهم، فقلب الموحد معلق بربه خالق السموات والأرض الذي بيده ملكوت كل شيء[٥٥].

ومن ثمار التوحيد أيضاً أن صاحبه يحصل على أفضل الحسنات وأزكاها، فإنه لا يُصل إلى الله سواه، ولا ينجى من عذاب الله إلا إياه[٥٦] فهو يمحو الذنوب والخطايا، ويسبب المغفرة بل يعد من أعظم أسباب المغفرة، فمَنْ فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد

---

(52) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٤، ص٤٠٦

(53) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٤، ص٩٢، وإذا كان ابن رجب يعتمد هنا على النظر في الإنسان والتأمل في كيفية خلقه ويتخذه كدليل على إثبات الوحدانية لله تعالى، فإن هذا الدليل قد استخدمه من قبل أبو الحسن الأشعري(ت ٣٢٤ه) كدليل على إثبات وجود الله حيث يقول: "إن الإنسان إذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ، وكيف دار في أطوار الخلقة طورًا بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقينًا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته، ويبلغه من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى كمال عرف بالضرورة أن له صانعًا قادرًا مريدًا عالمًا إذ لا يتصور صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور أثار الإحكام والإتقان في الخلقة" الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج٢، ص٢٣ أيضًا الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٩٤.

(54) ابن رجب الحنبلي: تحقيق كلمة الإخلاص، تحقيق محمود خليفة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٠م، ص٤٧

(55) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٢، ص٣٧٣

(56) ابن رجب الحنبلي : تحقيق كلمة الإخلاص، ص٥١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتى بأعظم أسباب المغفرة كما قال تعالى﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ وَمَن يُّشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٥٧] فالمؤمن الموحد إذا استقر التوحيد في قلبه واخلص لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه غفر الله له ما سلف من ذنوبه[٥٨] كما أنه يمنع صاحبه من الخلود في النار إذا كان في قلبه مثقال ذرة منه[٥٩] كما أنه يعد السبب الأعظم لنيل رضا الله سبحانه وتعالى، وهي الغاية التي تعد أشرف الغايات وأعظم المقاصد[٦٠].

فالتوحيد كما يرى ابن القيم عبارة عن شجرة طيبة تُثمر جميع الأعمال الصالحة ولها أصل ولها فرع ولها ثمار، وأصل مكان هذه الشجرة ومكان غرسها هو القلب، ثم تتفرع منها الفروع الطيبة والأغصان الزاهية، ثم تُثمر الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة ولا تزال هذه الشجرة تُثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وصلاحه فيها، ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقها ومراعاتها حق رعايتها[٦١].

ننتهي من هذا إلى أن الموحد عند ابن رجب يحيا بالتوحيد وتوهب له الحياة مثل حياة البدن بوجود الروح فيه، كما يحقق التوحيد لصاحبه الراحة النفسية والسكينة القلبية ويزيل عنه القلق مما يجعله يحيا حياة طيبة، فالمؤمن الموحد من أطيب الناس عيشًا وأنعمهم بالًا وأشرحهم صدرًا.

---

(57) سورة النساء، آية : ٤٨

(58) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٦٧

(59) ابن رجب الحنبلي : تحقيق كلمة الإخلاص، ص٦٠

(60) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٣، ص٢٢٥

(61) ابن القيم : أمثال القرآن، تحقيق ناصر ابن سعيد الرشيد، مطابع الصفا، مكة المكرمة السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص٣٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانياً: العبودية عند ابن رجب الحنبلي

يمكن القول بأن العبودية(*) لله عز وجل هي الغاية من خلق الإنسان على وجه الأرض والمؤثر الأعظم في حياة البشرية، وهي قضية حتمية للإنسان لا ينفك عنها بحال من الأحوال في كل زمان ومكان، والعبودية الحقة هي التي تحرر الإنسان من كل قيد، ويرتقي بها إلى درجات العز، ويشعر الإنسان باكتمال إنسانيته، وهذا واضح من تشريف الله لنبيه(ﷺ) بقوله تعالى في سورة الإسراء:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٦٢) فالعبودية تمثل أهمية خاصة في معراج الإنسان الروحي إلى الله تعالى، فلا طريق أقرب إلى الله تعالى من مقام العبودية ؛ لأنها أشرف أحوال العبد ومقاماته، فلا منزلة أشرف منها وأحب إلى الله تعالى، بل هي أوسع وأقرب باب إلى الله تعالى، ولهذا يذهب ابن رجب إلى أن "العبودية الكاملة لله لا تتحقق إلا لمن أفني مراداته وقام بمراد سيده، فلا يكون له اسم ولا رسم، ولا يجيب إلا لمن يدعوه بعبودية سيده بل إن من يدعي العبودية وله مراد باق فهو كاذب في دعواه"(٦٣).

وهذا التصور لمفهوم العبودية عند ابن رجب الحنبلي نجده عند الصوفية أمثال القشيري والكلاباذي وابن عجيبة والسهروردي البغدادي، من حيث أن العبودية عنده تعني

(*) العبودية في اللغة مصدر عبد يعبد عبادة، ومعبدة، فهو عبد، أي ذل وخضع، وأصل العبودية : الخضوع والتذلل، والمستحق لذلك الله عز وجل، وهو رب العباد، وعبد الله، أي تأله له، والتعبد : التنسك، والعبادة الطاعة، وفلان عابد هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره . انظر ابن منظور : مادة عبد، لسان العرب، ج٤، ص٧٧٦ والعبادة أيضًا هي الخضوع للإله على وجه التعظيم والشعائر الدينية، وتعبد أي انفرد بالعبادة وفلانًا اتخذه عبدًا ودعاه للطاعة انظر : مادة عبد بالمعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٥م ص٥٧٩ والعبودية هي الذل والخضوع، أو هي الرضا بما يفعل الرب أو هي فعل ما يرضي به الرب، أنظر الزبيدي : تاج العروس، ج٢، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، ص٤٠٩ والعبودية الحقة تكون خاصة بالعبد الصالح، فإذا أكرمه الله نصره وستر عليه حظوظ نفسه وهواها وجعله يتقلب في نعم عبوديته تعالى وشغل بها نفسه فلا يلتفت إلا لله وفي ذلك يقول الله تعالى﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ سورة ص، آية :٣٠ انظر د. حسن الشرقاوي: ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص٢٠٧ ويفرق البعض بين العبادة والعبودية فالعبادة هي غاية التذلل لله تعالى وهي للعامة، والعبودية للخاصة الذين صححوا النسبة لله بصدق القصد إليه في سلوك الطريقة، والعبودة لخاصة الخاصة الذين شهدوا نفوسهم قائمة به في عبوديته فهم يعبدونه به في مقام أحدي الفرق والجمع. انظر اصطلاحات الصوفية، تحقيق: د. عبد الخالق محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧م، ص١١١.

(62) سورة الإسراء، آية : ١

(63) ابن رجب الحنبلي : الذل والانكسار للعزيز الجبار، ضمن مجموع الرسائل، المجلد الأول، ص٣١٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستسلام التام، أو هي ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار، والتبرؤ من الحول والقوة[٦٤] أوهي وكما يري الكلاباذي الانسلاخ من الحول والقوة، وترك الاختيار وسكون القلب تحت جريان الحكم[٦٥] وفي هذا المعني يري ابن عجيبة أن العبودية هي محو الدعاوي والتبرؤ من الحول والقوة، بحيث لا يري لنفسه فعلًا، ولا تركًا، ولا نقصًا، ولا كمالًا، وإنما هي غرض لسهام الأقدار تجري عليه أحكام الواحد القهار[٦٦] كما أن السهروردي البغدادي يؤكد أن من ادعي العبودية وله مراد باق فقد كذب[٦٧] فالعبودية هنا عند ابن رجب والصوفية عبارة عن نوع من الاستسلام التام والكامل من جانب المريد لله تعالى من غير حول ولا قوة، وترك حرية الاختيار، وبهذا يتحقق كمال الإنسان الروحي وتحصل له سعادته الأبدية .

ويمكن القول أن العبودية عند ابن رجب الحنبلي تنقسم إلى نوعين هما:

النوع الأول: وهو عبودية الباطن وهي التي يكون قوامها بالفناء[*] عن إرادات النفس والهوى ؛ لأن محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم يكن فيه شيء سواه وصارت النفس حينئذ مطمئنة ؛ لأنها فنيت بإرادة مولاها عن مرادها وهواها.

النوع الثاني: عبودية الظاهر، وقوامها في الطاعة الكاملة لله بعبادته والوقوف عند الأمر والنهي[٦٨].

---

(64) القشيري : الرسالة في التصوف، ص١٢٦

(65) الكلاباذي : التعرف على مذهب أهل التصوف، تحقيق : د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٠م، ص٧٢

(66) ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د. ت، ص٢٤٣

(67) السهر وردي البغدادي : عوارف المعارف، تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ج١، دار المعارف القاهرة، د. ت، ص٥١

(*) الفناء بوجه عام عند الصوفية هو سقوط الأوصاف المذمومة أما البقاء فهو قيام الأوصاف المحمودة، الجرجاني: التعريفات، تحقيق د. عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٩٢ وانظر أيضاً: الطوسي : اللمع، ص٣٨٨، والكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٩٢ والصوفي وهو في طريقه إلى التصوف لابد وأن ينتهي إلى حال الفناء والبقاء، والمقصود بالفناء هنا أمران: "أن يفُنى العبد،أي يخلص العبد من صفاته الفانية صفاته الذميمة التي ترتبط بالبدن وتخضع له، أما الأمر الثاني الذي يقصد بالفناء فهو سعى المر بعد أن فُني عن الصفات السيئة أن يَفنى في الذات الإلهية ويتوحد معها ؛ لأنه قد فُني عن الحُجب التي كانت تمنعه من هذا الفناء. د. فيصل بدير عون: التصوف الإسلامي الطريق والرجال، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٨٣م، ص١٦٣ فالفناء عند الصوفية هو فناء عما دون الله، وهو الحال التي تتوارى فيها آثار الإرادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق، فيصبح الصوفي لا يرى في الوجود غير الحق، ولا يشعر بشيء في الوجود سوى الحق وفعله. انظر د.أبو العلا عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص١٧٩.

(68) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٢، ص٣٧٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا تتحقق العبودية الكاملة للإنسان إلا من خلال تلازم عبودية الظاهر وعبودية الباطن ؛ لأن محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى مرضاة الله[٦٩].

ويمكن القول أن الصوفية قد تناولوا مفهوم العبودية من خلال منظور جديد أدى الذوق الصوفي دورًا مهمًا في زيادة خصوبة دلالاتها، وأضفي عليها معاني جديدة تزيد من مراتب القرب بين العبد المستغرق بعبوديته والخالق الذي تفرض عزته وجلاله دوام الخضوع والانقياد، ولقد أشار القشيري إلى ثلاث معاني للعبودية مستمدة من آثار معرفتهم: المعني الأول يكون لمن عنده علم اليقين، ثم عبودية لمن له عين اليقين، ثم عبودية لمن له حق اليقين[٧٠] وحق اليقين عند الصوفية كما يذهب الإمام القشيري عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علمًا وشهودًا وحالًا لا علمًا فقط، فعلم كل عاقل الموت، علم اليقين، فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين، وقيل علم اليقين هو ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة فيها[٧١] ولهذا يذهب القشيري إلى أن العبادة تكون للعوام من المؤمنين أصحاب المجاهدات، والعبودية للخواص من أصحاب المكابدات، والعبودة لخواص الخواص من أهل المشاهدات والتجليات، فمن وهب نفسه لمرضاة الله تعالى ولم يدخر شيئاً منها كان من أصحاب العبادة، ومن لم يضن بقلبه فأخرج منه السوي وفتح له لُب الفؤاد لخالقه فهو من أصحاب العبودية، أما من لم يبخل بروحه والتفت بكليته إلى ربه وانمحقت ذاته فهو من أصحاب العبودية[٧٢].

لقد ظنت بعض الفرق الصوفية أن اسم الحرية أتم من اسم العبودية للمتعارف بين الخلق أن الأحرار أعلى مرتبة في الدنيا من العبيد، وتوهمت أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبد فهو مسمي باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حرًا، وإذا صار حرًا سقطت عنه العبودية، وبالتالي فهو غير مطالب بالطاعة أو العبادة، ولقد أخطأت هذه الفرقة وخفي عليها أن العبد لا يكون عبدًا حتى يكون قلبه حرًا من جميع ما سوى الله، فعند ذلك

---

(69) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٧٦

(70) القشيري: الرسالة في التصوف، ص١٢٥ وقد ذهب الجرجاني في تعريفة لليقين إلى أنه التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، أو هو، ارتفاع الريب في مشهد الغيب، وقيل اليقين العلم الحاصل بعد الشك، أما علم اليقين هو ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هو عليه، أما عين اليقين فهو ما أعطته المشاهدة والكشف، انظر الجرجاني : مادة يقين، التعريفات، ص٩٥.

(71) الجرجاني : التعريفات، ص٩٥

(72) القشيري : الرسالة القشيرية في التصوف، ص١٢٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون في الحقيقة عبداً لله[٧٣] كما أن تغليب الباطن على الظاهر يؤدي إلى إلغاء التكاليف والقضاء على مبدأ المسئولية ؛ لأن من يقولون به لا يعبئون بأعمال الجوارح من صلاة وصيام، إنما يعولون على أعمال القلوب من خشية ورهبة، فهم لا يفرقون بين فرض ونافلة وربما كان النفل عندهم أعلى مرتبة من الفرض ؛ لأنه ثمرة تطوع ووسيلة تقرب، ومنهم من قال أن الفرائض توصل إلى الجنة أما النوافل فهي توصل إلى صاحب الجنة[٧٤].

ثالثاً: وسائل تحقيق العبودية

١- مجاهدة النفس وطهارتها

أما عن وسائل تحقيق العبودية عند ابن رجب فهي تكون أولاً بمجاهدة النفس وطهارتها ففساد النفس سبب فساد القلب، وسائر أمراض القلب تنشأ من جانب النفس، فالنفس عنده العدو الباطن للإنسان ؛ لأنها إذا تمكنت من صاحبها قتلته[٧٥] كما يصفها ابن رجب بالذنب والخطيئة ؛ لأنها لا تدعو إلى الرشد، وإنما تدعو إلى الغي لقبح أوصافها وسوء أخلاقها الذميمة، ويدلل على ذلك بقول أبو بكر الصديق(رضي الله عنه) في وصيته لعمر بن الخطاب حين استخلفه "أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك"[٧٦].

إذن ينظر ابن رجب إلى النفس الإنسانية تلك النظرة التي ينظر إليها غالبية الصوفية من حيث أنها موطن الهوى ومصدر كل شر يحصل عليه الإنسان، وهي تعد عقبة في

---

(73) الطوسي : اللمع، ص٣٧٢

(74) الطوسي : اللمع، ص٣٧٢

(75) ابن رجب الحنبلي : نور الاقتباس، تحقيق عز الدين البدوي النجار، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٩م ص١٥٠ وذهب أبو سعيد بن أبي الخير(ت ٤٤٠ه) إلى أن النفس أس كل الشرور ومنبتها، والحائل بين المرء وبين الطاعة الدائمة لله، انظر د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٣٠، أو هي كما ذهب الترمذي(ولد عام٣٢٠ه) موطن الهوى ومرتع الشهوات، ولا تهدأ ولا تستقر مضطربة دائمًا، تموج بكثير من النزعات الشيطانية. أنظر د. سعيد مراد : التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة، دار عين للدراسات الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٦٥، أما الإمام أبو حامد الغزالي(ت ٥٠٥ه) فقد اعتبر النفس أضر الأعداء، وبلاؤها أصعب البلاء، ودواؤها أصعب الأشياء ؛ لأنها أصل كل فضيحة وقبيحة. الغزالي : منهاج العابدين، تحقيق د. خالد أحمد حسنين، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص٢٢٩، بل هي كما يذهب ابن عجيبة أصعب من الشيطان، لأنها عدو متصل، فهي أقبح من سبعين شيطاناً في قطع الطريق. ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص٤٠٣، كذلك اعتبر ابن باديس ولد عام ١٨٨٩م بمدينة قسطينية بالجزائر أن النفس حجر كل عثرة في كمال الإنسان الروحي وسبب انحطاطه من ناحية، كما أنها تعرقل العبد عن الوصول إلى السعادة من ناحية أخرى، انظر د. أحمد محمود الجزار : الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، ص١٤٤.

(76) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٤، ص١٤٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحقيق كماله الروحي، ولهذا يجب على الإنسان مجاهدتها لكي يحقق كماله الروحي، ولا يمكن مجاهدتها إلا بمحاربتها ومعاداتها، فهي كما يقول "أعدى عدو لابن آدم، ومن ملك نفسه وقهرها عز بذلك؛ لأنه انتصر على أشد أعدائه وقهره، واكتفى شره"[٧٧].

يمكن القول بأن المجاهدة عند الصوفية تكاد تكون مرادفة للقهر أو القتل ؛ ذلك لأن النفس تصبو إلى اللذة والشهوة وهي أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات، لا تألف الحق أبداً والطاعة خلاف سجيتها وطبيعتها[٧٨] لذا يجب على الإنسان عدم تلبية رغباتها ؛ لأنها داعية إلى الراحة والعصيان، وقد خلقت أمارة بالسوء مبالغة في الشر، فرارة من الخير، ولا يمكن مجاهدتها إلا بسلاسل القهر، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ؛ لأنها إذا أهملت جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك[٧٩] لذا فهي كصديق السوء كما ذهب أبو سعيد بن أبي الخير الذي يجب الخلاص منه، والفناء عنه بالكلية، بل السجن الذي طالما تهتم به فلن تجد الراحة قط، أما إذا خرجت منها وقعت في راحة أبدية، ووصلت إلى المعرفة بالله، ولا يكون ذلك إلا بموتها وقتلها[٨٠] والموت هنا هو الموت المعنوي، ويطلق عليه الصوفية اصطلاح الموت الأحمر، وهو مخالفة النفس في أهوائها وأغراضها[٨١].

هكذا اعتبر الصوفية النفس الإنسانية العائق في سبيل تحقيق العبودية الكاملة والوصول إلى الله، لذلك كانوا حريصين على كبح جماحها والفناء عنها بالكلية، وذلك عن طريق موتها وكسر سلطانها، وإماتة شهواتها، وذلك لكي يتحقق الكمال الروحي للصوفي وتتحقق مرتبة الوصول إلى الله، لهذا سعي ابن رجب إلى إصلاحها والارتقاء بها لتكون عوناً له في سبيل تحقيق العبودية ولتحقيق ذلك ينبغي على الإنسان أيضاً طهارة قلبه، فطهارة القلب يترتب عليها إصلاح الآثار المترتبة على الذنوب والمعاصي، فهي عملية تطهير للعبد ومداواته، ولا يتحقق ذلك إلا بالتوبة والاستغفار والذكر.

---

(77) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٤، ص١٤٩

(78) د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص٣١

(79) الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٤، تحقيق: الشحات الطحان،عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة الطبعة الأولي، ١٩٩٦م، ص٣٨٢

(80) د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص٣٢، لقد ذهب القشيري إلى هذا الرأي حيث اعتبر أن النفس بمثابة "سجنك فإذا خرجت منها وقعت في راحة أبدية " القشيري : الرسالة في التصوف، ص٤٧

(81) د. إبراهيم محمد تركي : فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولي، ٢٠٠٨م ص١٩١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- الذكر

لقد اعتبر ابن رجب الذكر أهم الوسائل التي تعين العبد على تحقيق طهارة القلب، بل أنه من أجل الأعمال، وأنفع العبادات، وهو لذة قلوب العارفين، وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع هي ذكر القلب، وذكر اللسان، وذكر الجوارح وأعلاها ذكر القلب[٨٢] لأنه يثمر المعرفة ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويدعو إلى المراقبة، أما ذكر اللسان يكون من خلال الثناء والحمد، أما ذكر الجوارح يكون بالطاعة والخدمة[٨٣].

وهذا التقسيم الذي ذهب إليه ابن رجب الحنبلي للذكر يتشابه مع تقسيم فخر الدين الرازي الذي اعتبر الذكر وسيلة ضرورية في تحقيق الكمال الروحي للإنسان، لأنه عبادة لا تتقيد بوقت دون وقت، بل يتاح للإنسان القيام بها في كل أوقاته، وهو ثلاثة أنواع: ذكر اللسان، وذكر القلب، والثالث ذكر الجوارح، أما ذكر اللسان فإنما يحصل بالألفاظ الدالة على التحميد والتسبيح وقراءة القرآن وتلاوته، أما ذكر القلب فينقسم إلى ثلاثة أقسام، أولها أن يتفكر الإنسان في دلائل الذات والصفات، وثانيها أن يتفكر الإنسان في دلائل التكاليف الإلهية من الأمر والنهي والوعد والوعيد، فإذا حصل له ذلك تيسر له القيام بها وسهل عليه فعل الطاعات، وثالثها : أن يتفكر الإنسان في أسرار مخلوقات الله، وهذا النوع أكمل أنواع الذكر القلبي، أما النوع الثالث للذكر فهو ذكر الجوارح، ويتحقق العبد بهذا الذكر حين تصير كل جارحة من جوارحه الظاهرة مستغرقة تماماً في الطاعات[٨٤] وإذا حصل الذكر بهذا المفهوم الذي يعنيه الرازي يكون ثمرته دوام اتصال العبد بربه واستحضاره في كل حال من أحواله انظر[٨٥] ولقد اعتبر القشيري الذكر سيف المريدين الذي يقاتلون به أعداؤهم، ويدفعون به الآفات التي تقصدهم، وركنا قويًا في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو عمدة هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام بدوام الذكر[٨٦] فهو أنفع العبادات وأجلها، بل إن سائر العبادات تتشرف به[٨٧] فهو كما يري ابن عجيبة أعظم الأعمال التي توجد ثمرتها عاجلًا وآجلًا، وثمرته هي النور الذي يشرق في القلب فيضمحل به كل باطل[٨٨].

---

(82) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص١٩٣

(83) ابن القيم : مفتاح دار السعادة، ج١، نشرة محمد بن عيادي عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولي، ٢٠٠٤م، ص١٩٥

(84) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، المجلد الثاني، ص٥٣٤

(85) د. أحمد محمود الجزار: فخر الدين الرازي والتصوف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص١٠١

(86) القشيري: الرسالة في التصوف، ص١٤١

(87) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٤٣٦

(88) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص٤٢٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك لأن الذكر عند ابن رجب مقيد بالشريعة، ولا يخرج عما هو مأمور بـــه العبـــد قرآناً وسنة، ولذلك كان القرآن عنده أصل الأذكار جميعها، وكانت تلاوتـــه بتـــدبر وفهـــم أفضل ضروب الذكر[٨٩]لهذا فقد ارتبط النوع الأول عنده وهـــو ذكـــر اللـــسان بالتحميـــد والتسبيح وقراءة القرآن وتدبر معانيه، أما النوع الثاني وهو ذكر الجوارح فقد ارتبط عنده بطاعة الله وتمثل أوامره ونواهيه، أما النوع الثالث فهو يعد نتيجة لما سبق ؛ لأنـــه يثمـــر المعرفة ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويدعو إلى المراقبة، ولهذا فهو لا يكمل إلا بـــالفكر، وفي هذا يقول ابن رجب الحنبلي "أن الفكر يشترك مع الذكر في طهارة القلب، والتفكيـــر الإيماني أفضل عبادة يصل بها العبد إلى حقائق الأشياء، ويطلع بها على خفايا آفات النفس ومكائدها، ويتعرف بها على أوجه حيل الشيطان، وكيفية التخلص منها وعلاجها، كمـــا أن الذكر يكمل بالفكر"[٩٠].

٣- الخلوة

يرى ابن رجب أن التفكير الإيماني يشترك مع الذكر في تطهيـــر القلـــب، بوصـــفه أفضل عبادة يصل بها العبد إلى حقائق الأشياء، ولا يتحقق لـــه ذلـــك إلا بـــالخلوة، لهـــذا اعتبرها ابن رجب وسيلة هامة لتخلية القلب للفكر والذكر، كما تخلصه من غفلته التي هي أساس داء القلب حتى تستقر فيه العبودية[٩١].

---

(89) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص١٩٤، والذكر بهذه الصورة التي يقدمها لنا ابن رجب يعـــد مخالفاً لما يقوم به بعض العوام أتباع الطرق الصوفية في الخلوات والزوايا من أفعـــال وحركـــات ومـــا يصاحبها من رقص وطبل وصياح وصراخ، وغير ذلك من أمور بدعية لا تليق بما يجب عليـــه الـــذكر الحقيقي لله تعالى. انظر د. أحمد محمود الجزار : قـــضايا وشخـــصيات صـــوفية، منـــشأة المعـــارف، الإسكندرية، طبعة ٢٠٠١م، ص٢١٦.

(90) المصدر نفسه، ص٣٦٢، ولقد ربط ابن باديس في العصر الحديث بين الذكر والفكر كما فعل ابن رجب الحنبلي، واتخذ موقف النقد من أتباع الطرق الصوفية ومن طريقة الذكر ومجالسه عند الغلاة منهم الذين انشغلوا بذكر اللسان وترديده بأعلى أصواتهم، وفاتهم جانب التفكر الذي هو أعظم أذكار القلب جميعهـــا، وما الذكر اللساني إلا أحد وسائله، ومن ثم انشغل أولئك الصوفية بالوسيلة عن المقصود، وليس ذلك هو ما كان عليه النبي(ﷺ) فقد كان دائم الفكر، وفضلاً عن ذلك فإن الاستغراق في مجالس الذكر بشكلها الـــذي يؤديه أصحابها قد يقطعهم عن مجالس العلم فيفوتهم بذلك ما ينبغي عليه تعلمه. انظر د. صابر عبده أبـــا زيد : منهاج أهل السنة في الرد على الشيعة والقدرية، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٥٦.

(91) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٢٢٣، تنبغي الإشارة إلى أنه لابد للمريد في بداية تصوفه من العزلة، ولا يقصد بالعزلة هنا اعتزاله الناس لسلامة الناس من شره أو سلامته من شرهم، إنما هي اعتزال الخصال المذمومة انظر د. عبد المنعم الحفني: المعجم الصوفي، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولـــى، ١٩٩٧م، ص١٧٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والخلوة بهذا التصور ليست خلوة عقلية يراد بها التأمل العقلي وحسب، إنما هي وسيلة عملية ضرورية للقلب لكي ينفي من داخله كل شاغل، فشأنها شأن المجاهدة والذكر تعد وسيلة عملية لتطهير القلب، وسبب الوصول إلى الله تعالى، لهذا يشترط ابن رجب على من يريد الخلوة أن يطهر ظاهره وباطنه بلباس التقوى من خلال التوبة والإنابة إلى الله تعالى، كما يحبس نفسه على طاعة الله وذكره، ويقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، ويعكف بقلبه وقالبه على ربه، وما يقربه منه، حتى لا يبقى له مراد سوى الله تعالى"[٩٢] كذلك اشترط القشيري على من يريد الخلوة أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده، لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع على ما يؤدي به فرضه ليكون بناءٌ أمره على أساس محكم[٩٣].

هكذا تسهم الخلوة عند ابن رجب الحنبلي في تطهير القلب من خلال التفكير الإيماني والذي بدوره يرتبط بالذكر والذي لا يخرج بدوره هو الآخر عن التسبيح والتحميد والاستغفار، وفق تدبر معاني القرآن الكريم والسنة النبوية.

٤- المضامين الأخلاقية في العبادات

بطهارة القلب ومن قبله طهارة النفس يكون الباطن عند ابن رجب الحنبلي تهيأ تمامًا للعبودية التي لا تكتمل إلا بالباطن وما يمثله من طهارة القلب والنفس، وبالظاهر وما يمثله من عبادات، فالعبادات هي المدخل الحقيقي للاتصال بالله وشهود الحقيقة، والصلة التي تربط بين العبد وبين ربه[٩٤] لهذا صار الإخلاص لزامًا في جميع العبادات[٩٥] فالصلاة على سبيل المثال يرى ابن رجب أنه لا يصلح لها إلا الطاهر ؛ لأن المتلوث بالأوساخ الظاهرة والباطنة لن يصل للقرب، ولذلك شرع الله عز وجل للمصلي غسل أعضائه بالماء ورتب عليها طهارة الذنوب وتكفيرها

حتى يجتمع لمن يرد المناجاة طهارة ظاهرة وباطنة في آن واحد[٩٦] ويتعين على المصلي بعد شرط الطهارة الظاهرة والباطنة أن يعي ما يقوم به وما يتلفظ به في كل ركن من أركانها حتى تكون صلاته كلها مقامًا حقيقيًا له بين يدي الله[٩٧] لهذا يؤكد ابن رجب

(92) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٢٧١
(93) القشيري : الرسالة في التصوف، ص٥٧
(94) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج١، ص٨٠
(95) المصدر نفسه، ج١، ص١١٤
(96) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج١، ص٨٠
(97) د. أحمد محمود الجزار : قضايا وشخصيات صوفية، ص١٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على ضرورة الخشوع في الصلاة فيرى أن أظهر ما يكون فيه الخشوع من المصلي في صلاته لله هو ما يكون عليه بقلبه وجوارحه وسجوده بوصفهما فعلين من أفعال الصلاة، ففيهما يستشعر العبد بين يدي ربه في حال ركوعه وسجوده صفات العزة والكبرياء والعظمة والعلو لله وحده[٩٨] والركوع هنا ليس مجرد الركوع بالجسد، فهو وإن كان يتضمن الذل بمظاهر الجسد، فلابد أن يخضع القلب لله ويزل له وحده، وحينئذ يكون خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل وحده[٩٩].

كذلك يعد الصوم عبادة ضرورية للكمال الروحي، وإذا كان الصوم المشروع هو الإمساك عن المأكول والمشروب والمنكوح بوصف هذه الأشياء مجتمعة هي مطالب الجسد، فإن صوم الجوارح عن الآثام الظاهرة والباطنة لا تقل في أهميته ولا خطره عن صوم الجسد[١٠٠] فالصائم يتقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح وهي أعظم شهوات النفس ؛ لأن الشهوات تقسي القلب وتعميه وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر وتستدعي الغفلة، وخلو البطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب رقته ويهذب النفس ويكسر سلطانها، ولا يقتصر أمر الصوم على ذلك بل يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر صورة الشهوة والغضب[١٠١].

الصوم إذا ليس مجرد عبادة تكف النفس عن شهواتها من الطعام والنكاح، ولكن للصوم دلالاته الروحية ؛ لأنه يتعدى هذا المفهوم الظاهري إلى المعنى الباطني، فهو عبادة تحقق الكمال الروحي لصاحبها لما فيه من انكسار الشهوة وقمع للنفس وتزهد في الدنيا وشهواتها.

وإذا انتقلنا إلى فريضة أخرى وهي الزكاة، فإن الزكاة لا تقل عن الصلاة والصوم في دلالاتها الروحية من الرحمة والبر والإحسان، ولم يقف ابن رجب عند معناها الظاهري فقط، بل تخطى هذا المفهوم إلى المعنى الباطني، فذهب إلى أن الزكاة بمفهومها الباطني هي نوع من أداء الشكر للمنعم من جنس ما أنعم الله به على عبده[١٠٢].

---

(98) ابن رجب الحنبلي : الخشوع في الصلاة، ضمن مجموع الرسائل، ج١، ص٢٩٨

(99) المصدر نفسه، ص٢٩٩

(100) د. أحمد محمود الجزار : قضايا وشخصيات صوفية، ص٤٥

(101) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٢٢٢

(102) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٢٩٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما فريضة الحج فليس المقصود به القيام بشعائره على نحو ما أمر به الشرع فقط من إحرام وكشف الرأس والطواف والوقوف بعرفة ورمي الجمار، بل يتخطى هذا المعنى الظاهري إلى المعنى الباطني، فالمعنى الروحي عنده لهذه العبادة لا يتحقق إلا من خلال شروط وأركان لابد من تحقيقها، ومن هذه الشروط:

الشرط الأول: إقامة الصلاة فمن حج من غير إقامة الصلاة كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله.

الشرط الثاني: يجب اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي، كما قال تعالى ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾(١٠٣).

الشرط الثالث: من أعظم ما يجب على الحاج اجتنابه في حجته اجتناب المال الحرام.

الشرط الرابع: ومما يجب على الحاج اجتنابه أن لا يقصد بحجه رياء ولا سمعة، ولا يقصد به إلا وجه الله ويتواضع في حجه.

الشرط الخامس: عقد النية وربما سبق بعض من سار بقلبه وهمته وعزمه بعض السائرين ببدنه، ويروي ابن رجب أن بعض الصالحين رأى في منامه عشية عرفة قائلاً يقول له: ترى هذا الزحام بالموقف قال نعم، قال: ما حج منهم إلا رجل واحد تخلف عن الموقف فحج بهمته فوجب الله له أهل الموقف، لذلك فإن الشأن ليس لمن ذهب ببدنه، إنما الشأن فيمن قعد ببدنه وسار بقلبه(١٠٤).

هكذا فإن العبادات إذا تحققت بهذه الصورة التي يقدمها لنا ابن رجب فإنها تعلو بصاحبها إلى الكمال الروحي، وتحقق الصلة بين العبد وربه، وتتحقق معها معنى العبودية عند أدائها فالعبودية عنده لا تتحقق إلا من خلال الكسب وبذل الجهد وإدراك العبد، والخضوع التام لله والطاعة الدائمة له بقبول ما جاء به الرسول(ﷺ) من عند الله، وعدم طلب الهدى من غير طريقته، ثم حُسن الإتباع له فيما بلغه عن ربه وتصديقه في كل ما أخبر به.

---

(103) سورة البقرة، آية : ١٩٧

(104) ابن رجب الحنبلي : لطائف المعارف، ص٢٢٩٢٣٢

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث:

الولاية والمعرفة عند ابن رجب الحنبلي

أولا : الولاية

تمثل الولاية(*) أحد الأفكار البالغة الأهمية في نطاق الحياة الروحية، وهي أصل التصوف وقاعدته، بل هي أساس الدخول إلى المعرفة بالله والتي هي نهاية المعراج الروحي عند كل السالكين إلى الله، وتعرف الولاية عند الصوفية بأنها: قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، أما الولاية في الشرع فتعني تنفيذ القول على الغير شاء الغير أو أبى(١٠٥) ولقد ذهب الكلاباذي إلى أن الولاية ولايتان: الأولى ولاية تخرج من العداوة وهي لعامة المؤمنين، فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان، لكن من جهة العموم فيقال المؤمن ولي الله والثانية: ولاية اختصاص واصطناع، فهذه توجب معرفتها والتحقق بها، ويكون صاحبها محظوظًا عن النظر عن نفسه، فلا يدخله عجب ويكون مسلوبًا من الخلق، بمعنى النظر إليهم بحظ، ويكون محظوظًا عن آفات البشرية، وإن كان طبع البشرية قائمًا معه باقيًا فيه، فلا يستحلي حظًا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه في دينه واستحلاء الطبع قائم منه، وهذه هي خصوص الولاية من الله للعبد(١٠٦) هكذا فإن الولاية اصطلاحيًا تعني مرتبة من مراتب القرب الإلهي.

(*) جاء في معاجم اللغة أن الولاية تنطق بفتح الواو وكسرها وهي مرتبة في الدين عظيمة لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرًا وباطنًا، فالولاية في اللغة بكسر الواو من وليه ولياً أي دنا منه دنوًا، وأوليته إياه بمعنى أدنيته منه ومنه والاه وموالاة ووالي بين الشيئين إذا قارب بينهم. انظر الزمخشري : أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م، ج٢، مادة ولي، ص٥٢٨ وفي لسان العرب الولاية بمعنى النصرة، وينصرف معناها إلى من تولاه الحق تعالى بإحسانه وفضله، ولهذا فمن أسمائه تعالى الوالي وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها، وينصرف معنى الولاية إلى القرب والنصرة والتي لا ينفك معناها أيضًا عن المحبة والمودة، ولهذا يقال فلان يلي فلانًا أي يقرب منه، والولي بحسب هذا المفهوم هو القريب انظر. ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٤٩٢، والولي له معانٍ كثيرة منها، المحب وهو ضد العدو، اسم من ولاه إذا أحبه، ومنها الصديق والنصير، ومن ولاه إذا نصره وولي الشيء ولي عليه ولاية، والولي في أسماء الله تعالى هو الناصر وقيل المتولي لأمور العالم القائم بها، وأيضًا الوالي هو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها، انظر محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، المجلد العاشر، د. ت، ص٤٠١

(105) انظر الجرجاني: التعريفات، ص٢٤٩، أيضًا عبد الرزاق الكاشاني : اصطلاحات الصوفية، ص٧٦

(106) انظر الكلاباذي: التعرف على مذهب أهل التصوف، ص٩٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويمكن القول أن مفهوم الولاية عند ابن رجب الحنبلي لا يختلف كثيراً عما هو موجود في كتب اللغة، فلقد ذهب إلى أن أصل الموالاة هو القرب، وأصل المعاداة هو البعد، وأولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه، وهم الذين لا يسأمون من طول اجتهادهم لله تعالى ويحبون ذكره، وهم الذين تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، وأعداؤه الذين أبعدهم منه بأعمالهم،المقتضية لطردهم وإبعادهم منه، ولهذا تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم[١٠٧] وتجب الإشارة إلى أن مفهوم الولاية عند ابن رجب يعتمد على حديث الرسول(ﷺ) والذي يقول فيه "من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذ بي لأعيذنه"[١٠٨].

أي أن العبد إذا اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم النوافل قربه الله إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته، ومن ثم ولايته، وإذا وصل إلى هذا صار الذي في قلبه من المعرفة والمحبة مشاهدًا له بعين البصيرة، فمتى امتلأ القلب بمحبة الله التي هي أساس الولاية محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادة إلا ما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وهي منزلة كنت سمعه وبصره ولسانه[١٠٩] ولهذا يصبح هذا الشخص المقرب مجاب الدعوة، وله عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأله أعطاه، وإذا استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته[١١٠] لهذا فهو يري أن الفناء الصحيح هو الذي يقرب العبد الولي من ربه، وشهود الأمر لله وحده[١١١].

وتنبغي الإشارة إلى أن قرب الله من العبد أو تقرب العبد إلى الله عند ابن رجب ليس القرب المقصود به قرب مسافة حسية أو مكانية، ولكنه قرب معنوي يكون لأهل الطاعة، وهو قرب قدرة وعلم وإحاطة من جانب الله تعالى، لا قربًا بالذات أو الوجود

---

(107) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص١٩٤

(108) البخاري : صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢، ج٣، ص٢٤٧

(109) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٥٢٢

(110) المصدر نفسه، ص٥٢٣

(111) المصدر نفسه، ص٥٢٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"ولا ينبغي أن ينصرف معناه إلى القرب المكاني فهذا مما لا يليق بالله، ولهذا فالقرب هو قرب بالعلم والقدرة الإلهية، وهذا هو ما ينبغي أن يكون في قرب الله تعالى من عباده، أما قرب العبد من الله تعالى فهو لا يخرج عن الطاعة التامة لله[١١٢] وبمعنى آخر قرب الله من العبد هو قرب رحمة واصطفاء، وهذا في حق الخواص، وفي حق العوام هو قرب إحاطة وقدرة وعلم[١١٣] وأولياء الله هم الذين قربوا منه وأحبوه، فقرب الله منهم وأحبهم، ولهذا يتولاهم ويتولونه، وهذا المعنى للولاية نجده عند فخر الدين الرازي والذي اعتبرها نوعًا من القرب الذي يحققه العبد من خلال الطاعة التامة لله والمداومة على عبادته[١١٤] كذلك يتفق تعريف ابن رجب للولاية مع تحديد الجيلاني، وتعريفه لها من أنها نوع مخصوص من القرب الذي حققه العبد المؤمن بأداء ما أفترضه الله عليه، ثم زاد عليه بالنوافل من الطاعات، فكان جزاؤه قربًا من الله وثمرته المعرفة به[١١٥].

تكمن فكرة الولاية إذن عند ابن رجب الحنبلي في إتباع الرسول(ﷺ) ظاهرًا وباطنًا، فليس الولاية إدعاءً وإنما هي إتباعٌ، وأساس الطريق وبدايته إلى الله هو سلوك الصراط المستقيم الذي بعث به الرسول(ﷺ) وأنزل به كتابه وأمر الخلق كلهم بسلوكه[١١٦] وأفضل العباد من سلك طريق النبي(ﷺ) واتبعه في العبادة البدنية والاجتهادات القلبية[١١٧] ومن ادعي ولاية الله ومحبته بغير طاعته التي شرعها على لسان رسوله(ﷺ) تبين أنه كاذب في دعواه كما كان المشركون يتقربون إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه[١١٨].

معنى هذا أن الولاية عند ابن رجب الحنبلي تعد مرتبة في الدين لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرًا وباطنًا، وهو يؤمن بأن باب الولاية مفتوح، فالولاية حق مقدور لكل إنسان ؛ لأن الإيمان والصلاح عنده "هما مفتاح الدخول إلى الولاية ؛ لأن اللهَ وليُّ المؤمنين، كما يتولى الصالحين وفي هذا يقول الحق تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ

(112) فخر الدين الرازي : أساس التقديس، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٢٢
(113) ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص٣٨٧
(114) د. أحمد محمود الجزار : فخر الدين الرازي والتصوف، ص١٥١
(115) د. أحمد محمود الجزار : الولاية بين الجيلاني وابن تيمية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٥
(116) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج١، ص٤٣٢
(117) المصدر نفسه، ص٤٤٣
(118) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم، ص٥١٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾[١١٩] فمن حفظ حدود الله وأدى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال[١٢٠].

ولقد قسم ابن رجب الحنبلي الولاية إلى درجتين:

الدرجة الأولى: درجة المقتصدين أصحاب اليمين وهم المقربون إليه بأداء الفرائض، ويعتبر ابن رجب أن أداء الفرائض أفضل الأعمال، ذلك لأن الله تعالى إنما افترض على عباده هذه الفرائض ليقربهم منه، ويوجب لهم رضوانه ورحمته، ويستدل على ذلك بقول عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أفضل الأعمال أداء ما أفترض الله والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في النوافل والطاعات، وذلك يوجب للعبد محبة الله، كما قال تعالى "ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه "ومن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك الزلفى لديه والحظ عنده والقرب منه[١٢١] وهنا يربط ابن رجب بين درجة الوصول إلى مرتبة السابقين المقربين وهي أعلى مراتب الولاية عنده وبين كسب العبد الذي يتمثل في أداء الفرائض ثم التقرب إلى الله بالنوافل، فضلاً عن الاتباع الكامل للرسول(ﷺ)[١٢٢] وهذا ما عبر عنه الحديث القدسي الذي يقول فيه ربُّ العزة " من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبد بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"[١٢٣].

وإذا كانت الولاية يمكن أن تتم عن طريقين، إما عن طريق الاكتساب وإما عن طريق المواهب بمعنى أن هناك أولياءً نالوا ولايتهم بالمنة الإلهية، وآخرين نالوها بالجهد والاكتساب، فإن الولاية عند ابن رجب كسبية وليست وهبية، ومن ثم فالولاية لا تصلح إلا بالمجاهدة والعمل في طاعة الله" فالعبد إذا امتثل أوامر مولاه وفعل ما يحبه الله تعالى،

---

(119) سورة محمد، أية : ١١

(120) ابن رجب الحنبلي : مجموع الرسائل، ج٢، ص٤٣

(121) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٥١٦

(122) د. محمد السيد الجليند: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٣٩

(123) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع، رقم الحديث ٦٥٠٢، ج٣، ص٢٤٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحبه الله تعالى، ورقاه إلى درجة محبته، ومن ثم ولايته"[١٢٤] ولا سبيل إلى القرب من الله وولايته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله(ﷺ)[١٢٥] فالولاية لا تكون إلا للرجل الصالح المؤمن، كما أن ولاية الرسول(ﷺ) لا تكون بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيمانٍ وعملٍ فهو أعظم ولاية له، سواء كان له نسب قريب أو لم يكن له[١٢٦].

ننتهي من هذا إلى أن الولاية عند ابن رجب الحنبلي لا تكون إلا بالمجاهدة والعمل في طاعة الله، وبحسب إيمان العبد بالله وتقواه تكون درجته في الولاية، وهذا الرأي من جانبه إن دلنا على شيء فإنما يدلنا على اعتقاده بأن باب الولاية لا يزال مفتوحًا أمام كل إنسان أراد الوصول إلى الله تعالى، وبالتالي تنتفي فكرة ختم الأولياء[*] ما دامت الولاية حقًا لكل إنسان بحسب إيمانه الراسخ وعمله الصالح، كما أن طريق الولاية عنده قائمًا على المحبة، والإنسان لا يكون كامل الإيمان حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول(ﷺ) من الأوامر والنواهي، وأن يقدم محبته على محبة جميع الخلق.

ثانياً : المقامات ودورها في تحقيق الولاية

١- مقام التوبة

إذا كانت محبة الله ورسوله تعد الباعث للعبد إلى الوصول للولاية، فإن ابن رجب الحنبلي يرى أن أول المقامات[**] في هذا الطريق فهو مقام التوبة، فهو أصل كل مقام

---

(124) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج١، ص١٥٤، يمكن القول أن ابن رجب الحنبلي هنا يتفق مع فخر الدين الرازي، إذ ذهب إلى أن الولاية حق بمقدور كل إنسان الوصول إليه، لأنها مرهونة بالمجاهدة ودوام الطاعة لله تعالى أنظر : د. أحمد محمود الجزار : فخر الدين الرازي والتصوف، ص١٥٧، ولكن الولاية عنده تختلف عن الولاية عند أبي سعيد بن أبي الخير لأن الولاية عنده إنما تكون بعناية الله وجذبه لواحد من عباده دون غيره، وإذا سبقت العناية في البداية ظهرت الولاية في النهاية. د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص٦١

(125) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٥١٦

(126) المصدر نفسه، ص٤٩٩

(*) معنى الخاتم عند الصوفية هو الذي قطع المقامات بأسرها وبلغ نهاية الكمال، وهو بهذا المعنى يتعدد ويتكثر، وخاتم الولاية هو الذي يبلغ به صلاح الدنيا والآخرة ويختل بموته نظام العالم، أما خاتم النبوة فهو الذي ختم الله به النبوة ولا يمكن أن يكون إلا واحدًا وهو نبينا(ﷺ) انظر عبد الرزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، ص١٥٠.

(**) المقام هو رتبة أو درجة يكون فيها العبد بين يدي الله عز وجل بشأن ما يقوم بداخله من رياضة ومجاهدة وعبادة أو انقطاع إلى الله وقد ذكر في القرآن الكريم﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ سورة إبراهيم، آية : ١٤، كذلك قوله تعالى﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ سورة الصافات، آية : ١٦٤، أما الحال فهو ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوامه ومن لا توبة له لا مقام له ولا حال، وهي عنده الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه والإقلاع من الذنوب بالقلوب والجوارح، وتلك هي التوبة المشروعة التي لا يستغنى عنها أحد[١٢٧] لأن العبد مهما بلغ إيمانه فليس له أن يظن أنه مستغني عن التوبة إلى الله والاستغفار[١٢٨] ومن أصر على عمل المعصية والسيئات من أول عمره إلى آخره، ولم يندم كان من الأشقياء[١٢٩].

هنا يربط ابن رجب بين التوبة والندم، بل اعتبر الندم شرطًا ضرورِيً لقبول التوبة؛ لأن للتوبة وكما يرى القشيري لها ثلاثة شروط، الأول: الندم على المعصية والثاني: الإقلاع عن المعاصي والثالث: أن يعزم العبد ألا يعود إليها أبدًا[١٣٠].

وتتحدد درجة التوبة بمقام السالك، فتوبة الرجل العادي غير توبة المريد الذي تختلف توبته عن الصوفي، فتوبة الرجل العادي توبة المتيقظ فيستديم الندم ويكثر الاستغفار، أما توبة السالك فلا حديث هنا عن الخطايا والذنوب ولا عن الندم والاستغفار إنما يحدث انتقال نفسي يتم بعده استحضار الله في كل خطوة من الخطوات، وأما توبة العارف فلا حديث هنا عن الذنب أو عصيان النفس إنما نحن الآن أمام عبد ذاهب عن نفسه ؛ لأنه في كنف مولاه، فأين يأتي التقصير ؟ إذا انقطع الذكر إذا حدثت الغفلة وفي هذا يقول ذو النون المصري: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة[١٣١] وشتان بين تائب وتائب، تائب يتوب من الذنوب والسيئات وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات[١٣٢].

٢- مقام الزهد

أما المقام الثاني الذي يلي مقام التوبة هو مقام الزهد، فالزهد في الدنيا هو تفريغ القلب من الاشتغال بها ليتفرغ لطلب الله ومعرفته، والقرب منه، والأنس به، والشوق إلى

يحل في القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكر، ولذلك قيل أن الحال هي الذكر الخفي. انظر الطوسي: اللمع، ص١٦، أو هي كما يذهب القشيري معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اكتساب، كالطرب والحزن والقبض والشوق، ولهذا فإن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من غير الوجود والمقامات تحصل ببذل المجهود. القشيري: الرسالة في التصوف، ص٧٠.

(127) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف، ص٢٢٩

(128) المصدر نفسه، ص٤٦٢

(129) المصدر نفسه، ص٤٦٦

(130) القشيري: الرسالة في التصوف، ص٥٢

(131) المصدر نفسه، ص٥٣

(132) الطوسي: اللمع في التصوف، ص٢٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقائه[١٣٣] وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى : الزهد في الحرام وتشمل المعاصي كلها، والدرجة الثانية :

الزهد في الحلال وهو زهد الفضول، الدرجة الثالثة : الزهد في الشرك وفي عبادة ما عبد من دون الله، وترك ما يشغل عن الله وهو أفضل الزهد[١٣٤].

إذا كان ابن رجب قد قسم الزهد إلى ثلاث درجات فإن الطوسي قد قسم الزهاد إلى ثلاث طبقات الأولى: طبقة المبتدئين وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم، والثانية: هي طبقة المتحققين في الزهد وهم الذين يزهدون بقلوبهم في جميع ما في الدنيا من حظوظ النفس دون استثناء لشيء، ولا يبقون بزهدهم راحة ولا ثناء عند الناس، أما الطبقة الثالثة: وهي أعلى مراتب الزهد، فهي طبقة الزاهدين في الزهد ؛ لأنهم علموا وتيقنوا أن الدنيا لا شيء، وأن الزهد في لا شيء إنما هو غفلة، ولذلك زهدوا في زهدهم[١٣٥] وهذا النوع الأخير من الزهد هو أعلى درجات الزهد عند ابن رجب هو الزهد في كل شيء سوى الله تعالى، وإذا حقق العبد الزهد بهذه الدرجة أحبه الله، ومن ثم قربه إليه، ونال ولايته[١٣٦].

يعد الزهد إذن بالنسبة للتصوف أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله والراضين عن الله، والمتوكلين على الله، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة، ولا يسمى ترك الحرام والبعد عن الشبهات زهدًا؛ لأن ترك ذلك واجب، إنما يكون الزهد فيما هو حلال ومباح"[١٣٧] ولهذا فقد بالغ بعض الصوفية حين اعتبر أن الزهد هو أن لا تملك شيئًا أصلًا حتى تزهد فيه، مثلما ذهب الشبلي وابن خفيف وبشر الحافي والجنيد[١٣٨].

٣- مقام الصبر

ويأتي بعد مقام التوبة والزهد عند ابن رجب مقام الصبر، فالصبر لازم لكمال الإيمان الذي هو أساس الولاية عنده، لكون الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وارتباط الصبر بتحمل البلايا والشدائد ؛

(133) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٤٢٨
(134) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٤٢٠
(135) الطوسي: اللمع في التصوف، ص٧٢
(136) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٤٢٠
(137) الطوسي: اللمع في التصوف، ص٧٢
(138) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٤٣

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن الصبر على البلاء جزاؤه المعية الخاصة، وهي معية النصر والظفر والتأييد، وعلى العكس من جزع ولم يصبر غلب وقهر وأسر، وصار عبدًا ذليلًا في يد شيطانه وهواه[١٣٩] كما أن الصبر على البلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه وذلك أعلى المقامات[١٤٠].

ولقد قسم ابن رجب الحنبلي الصبر إلى ثلاث درجات الدرجة الأولى: الصبر على طاعة الله والدرجة الثانية: صبر على معصية الله، والدرجة الثالثة: الصبر على امتحان الله، وهذا النوع أعلى أنواع الصبر ؛ لأنه امتحان لكمال إيمان العبد[١٤١] مكانة الصبر إذن كامنة في اقترانه بتحمل البلايا والشدائد، من حيث أنهما امتحان لكمال إيمان العبد، ولأجل ذلك كانا معًا الصبر والبلاء أساس كل خير، بل هما أساس النبوة والرسالة وإذا كان الصبر عند ابن رجب لازم لكمال الإيمان فكذلك الشكر يعد عنده لازم لكمال الإيمان ؛ لأنه نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر[١٤٢].

٤- مقام الشكر

الشكر عند ابن رجب هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع والاستسلام[١٤٣] والاعتراف بنعمه يكون باللسان والقلب والجوارح، أما اللسان فالاعتراف بالنعمة يكون بالحمد والثناء، والشكر بالقلب يكون بالاعتراف بأن الله عز وجل هو المنعم على عبده ولا أحد غيره، أما شكر الجوارح هو أن يكف عن المعاصي وتستعمل الطاعات[١٤٤] فصلاح العبد وكمال إيمانه يتعلق بالشكر والنعم إن لم يقترن بها الشكر كانت بلية[١٤٥].

والشكر عند ابن رجب له درجتان، الدرجة الأولى: وهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين والشكر في هذه الدرجة يكون واجبًا، لأن صاحبها يأتي بالواجبات ويتجنب المحرمات، ولا يكفي العبد فيها أن لا يفعل شيئاً من الشر وإنما يكون مجتنبًا للشر، والدرجة الثانية: وهي الشكر المستحب وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه هي درجة السابقين المقربين، وهي أعلى درجات

(139) ابن رجب الحنبلي: نور الاقتباس، ضمن مجموع الرسائل، ج٢، ص٩٠
(140) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٢
(141) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٣١٨
(142) المصدر نفسه، ص٣١٠
(143) المصدر نفسه، ص٣٥٤
(144) المصدر نفسه، ص٣٥٥
(145) المصدر نفسه، ص٣٥٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الولاية[١٤٦] بدليل أن الرسول(ﷺ) نفسه قد أشار إليها في الأحاديث النبوية الشريفة، فقد اجتهد الرسول(ﷺ) في الصلاة حتى تورمت قدماه وعندما سئل لما تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟[١٤٧].

٥- مقام التوكل

أما المقام التالي والذي يؤدي إلى رسوخ الإيمان ومن ثم حصول الولاية فهو مقام التوكل، وقد أمر الله تعالى به وجعله مقروناً بالإيمان[١٤٨] كما في قوله تعالى:﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١٤٩] وقوله تعالى:﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١٥٠] والتوكل عند ابن رجب معناه صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب النفع ودفع الضر في أمور الدنيا والآخرة[١٥١] وهو نوعان : علم، وعمل، فتوكل العلم هو معرفة القلب بتوحيد الله بالنفع والضر وهو للعامة، وتوكل العمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه وهو للخاصة[١٥٢].

وهذا المعنى للتوكل لا يعني عنده الركون وعدم السعي للعمل والكسب؛ لأن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بالأخذ بالأسباب مع أمره بالتوكل فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به[١٥٣] التوكل الحقيقي إذن ليس معناه ترك التكسب والركون إلى البطالة، إذ لا يضر التكسب لمن صح توكله ؛ لأنه مأمور به لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾[١٥٤] فهذه الآية شاهد صدق على ضرورة

---

(146) المصدر نفسه، ص٣٥٧

(147) حديث صحيح انظر: الألباني: صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند، مكتبة التراث العربي، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م، رقم ١١٦٦، ص٢٣٩.

(148) الطوسي: اللمع في التصوف، ص٧٨ و ولقد عرف السهروردي التوكل بأنه " تخلي القلب عما سوى الله، وترك الاعتماد على غيره، وترك تدبير النفس وانخلاع من الحول والقوة. السهروردي : عوارف المعارف، ص ٢٩٢، أيضاً : أبو طالب المكي : قوت القلوب، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م ج١، ص٩.

(149) سورة المجادلة، آية : ١٠

(150) سورة المائدة، آية : ٢٣

(151) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٣١٨، وهذا المعني للتوكل هو نفس المعني الذي ذهب إليه الإمام الجنيد حينما قال عنه هو اعتماد القلب على الله وحده، أنظر الطوسي : اللمع، ص٧٩.

(152) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف، ص٩٩

(153) المصدر نفسه، ص٣١٩

(154) سورة النبأ، آية : ١١

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمل والكسب، ومن ثم فمن أنكر التكسب فقد طعن في السنة، ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن في التوحيد[١٥٥] أو كما قال القشيري "من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان"[١٥٦].

إذن التوكل على الله لا ينفي سعي الصوفي إلى تحصيل رزقه، لذا يؤكد ابن رجب على ضرورة العمل والسعي والأخذ بالأسباب، وإذا صح توكل المؤمن بهذا المعنى فإنه يحقق لصاحبه ولاية الله له.

ثالثاً: بين النبوة والولاية

يمكن القول أن الأولياء مهما بلغوا في كمال العبادة والطاعة لله، إلا أنهم يظلون دون مرتبة الأنبياء، بل لابد لهم لكي يصلوا إلى درجة الكمال الروحي من الإتباع الكامل للأنبياء ظاهرًا وباطنًا، بوصفهم أي الأنبياء أعلى عباد الله في الكمال الروحي والخلقي من ناحية، ولكمال بشريتهم من ناحية أخرى، وينبني على ذلك أن الاتباع الكامل للنبي(ﷺ) بوصفه خاتم النبيين في كل أفعاله وأحواله هو السبيل الوحيد لنوال محبة الله وولايته، ولذلك كان محمد (ﷺ) أفضل الخلق ؛ لأن الله اختاره لتبليغ أكمل شريعة، بالإضافة إلى أنه بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته، وعاش مجاهداً في كل لحظة من لحظات حياته[١٥٧].

كما أن الأولياء مهما بلغ شأنهم أيضًا في العبادة والطاعة والكمال إلا أنهم يظلون دون مرتبة الصحابة والتابعين، ومن ثم كان أهل السلف الصالح هم أفضل أمة محمد(ﷺ) لكمال أتباعهم له أما أفضل المؤمنين بعدهم، فهم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء[١٥٨] ولهذا فإننا نجد ابن رجب يفرق بين الأنبياء والأولياء من ناحية :

١- مسألة العصمة

يؤكد ابن رجب على أن العصمة تكون للأنبياء فقط دون الأولياء، فالأولياء يجوز عليهم الخطأ ويجوز في حقهم الوقوع في الذنوب لأنهم دون مرتبة الأنبياء، فليس بعد الرسول(ﷺ) أحد معصوم من الخطأ والذنب حتى ولو كان من الصحابة أو التابعين،

---

(155) أبو طالب المكي: قوت القلوب، ج٢، ص٢٦

(156) القشيري: الرسالة في التصوف، ص٥٢

(157) المصدر نفسه، ص٧٠

(158) د. أحمد محمود الجزار: الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، ص١٧٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أمَّا الولي فليس من شرط الولاية أن يكون معصومًا[١٥٩] فالعصمة كما يذهب الإمام القشيري ليست حقًا مطلقًا للأولياء ولكنها للأنبياء فقط[١٦٠] ومهما ترقى الولي في مراتب القرب من الله وكانت درجته في الولاية فإن العصمة المطلقة لن تكون هي حاله مع الحق والخلق بل مع نفسه، إذ الأولياء شأنهم شأن عباد الله يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم[١٦١] ويجوز أن يخفى عليه من أمور الشريعة ما يخفى على غيره، وإن كان عالمًا مجتهدًا، ويجوز أن يشتبه عليه من أمور الدين ما يشتبه على غيره إذ لا عصمة له[١٦٢].

٢- مسألة المعجزة والكرامة

أما الأمر الثاني الذي يفرق به ابن رجب بين النبي والولي فهي مسألة المعجزة أو الكرامة، فهو يؤكد على إمكانية حدوث الكرامة للأولياء، وهي لا تظهر إلا على من صدق في إيمانه وإخلاصه وتوكله على الله، فالله سبحانه وتعالى قد يخرق العادة لبعض المحبين له ولمن يشاء من عباده[١٦٣] معنى هذا أن الكرامة عند ابن رجب يشترط في

---

(159) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف، ص٢٢، و ابن رجب الحنبلي في تفريقه بين النبي والولي يختلف عن بعض الصوفية مثل الكلاباذي الذي جعل العصمة للولي، لأن الحق تعالى يتولى تصديقه وحفظه، وهو بمنأى تام عن جميع المخالفات أنظر : الكلاباذي : التعرف على مذهب أهل التصوف، ص١٤٧ كذلك قال ابن عربي أن الأولياء لهم الحفظ الإلهي والعصمة. انظر: د. محمد عبد الحميد: النبوة بين فخر الدين الرازي وابن عربي، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص٢٢٨.

(160) القشيري : الرسالة في التصوف، ص٢٤٠

(161) د. أحمد محمود الجزار: الولاية بين الجيلاني وابن تيمية، ص٣٠

(162) د. محمد سيد الجليند: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٣٩

(163) ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف، ص٢٢ الكرامة كما يعرفها الجرجاني هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة. الجرجاني: التعريفات، ص١٨٤، ولقد حدث خلاف بين الفرق الإسلامية حول مسألة الكرامة، فلقد ذهب الأشعري إلى أنه يجوز أن يخص الله عز وجل من عباده الصالحين بآيات ويظهرها عليهم، الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة، ص٥٥ واستند في ذلك إلى ما حدث لغير الأنبياء من خوارق كما حدث لمريم وأصحاب الكهف، وكما رؤى عن بعض الصحابة وخاصة ما حدث لعمر بن الخطاب مع سارية. انظر د. إبراهيم محمد تركي: علم الكلام بين الدين والفلسفة، دار الوفاء، الإسكندرية الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص٢٣٣ أما المعتزلة فقد أنكرت وقوع الكرامات على يد الأولياء، لأنهم رأوا في ذلك قدحًا لمقام الأنبياء، فمن شأن الخارق أن يكون خاصًا بهم لا لغيرهم من الناس. البغدادي: الفرق بين الفرق، ص١٧٥.أما الجنيد فقد رأى أن الاتكال على الكرامة هو أحد الحجب التي تمنع المختار من النفاذ إلى صومعة الحق. نيكلسون: الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٢٥، وهذا يتفق مع رأي أبي سعيد بن أبي الخير حينما ذهب إلى أن الكرامة ليست شيئًا لازمًا من لوازم الولاية، ويرى وجوب ألا يغتر بها الولي إذا جاءته، انظر د. أحمد محمود الجزار : المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص ٩٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدوثها صدق الإيمان وحسن المتابعة للرسول(ﷺ) وهذا فرق بين الولاية والنبوة، فالنبي متبوع، أما الولي فهو تابع للنبي(ﷺ).

٣- مسألة الشفاعة

أما الأمر الثالث الذي يفرق فيه ابن رجب الحنبلي بين النبوة والولاية فهو مسألة الشفاعة، فهو يثبت الشفاعة للرسول(ﷺ) لأن شفاعته نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته يوم القيامة في زيادة الثواب والعقاب ورفع الدرجات[١٦٤] كما أن الشفاعة عنده نوعان أولها: الشفاعة التي نفاها الله تعالى كالتي أثبتها المشركون، وثانيها : الشفاعة المقبولة وهي أن يشفع الشفيع بإذن الله تعالى، وهذه هي الشفاعة التي أثبتها الله تعالى في كتابه للأنبياء ولعباده الصالحين[١٦٥].

ولقد نفى القرآن الشفاعة الشركية التي أثبتها المشركون لأوليائهم وأتباعهم، وما نفي القرآن الشفاعة عن أحد إلا أن تكون بإذنه كما قال تعالى﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[١٦٦] وقوله تعالى﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[١٦٧].

---

(164) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٣، ص٣٢١، لا خلاف بين الفرق الإسلامية حول إثبات مسألة الشفاعة، وإنما ينحصر الخلاف فيمن يستحقها، فالشفاعة عند المعتزلة تعد مسألة متفرعة من أصل من أصولهم الخمسة، وهو أصل الوعد والوعيد ولا خلاف عندهم في أنها تثبت للنبي(ﷺ)، وهي عندهم للتائبين من المؤمنين، انظر: القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة الطبعة الأولى، ١٩٦٥م، ص٦٨ ولقد ذهبت الشيعة الإمامية إلى أن الرسول(ﷺ) يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن أئمة آل محمد(ﷺ) يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرًا. انظر د. مصطفى كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د. ت، ص٣٩٨، كما نسب محمد الباقر الشفاعة إلى نفسه، كذلك الإمام جعفر الصادق، وهذا واضح من قولهما "والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك: فما لنا من شافعين" د. مصطفى كامل الشيبي : الصلة بين التصوف والتشيع، ص٣٩٩، وهذا ما نسبه إلى نفسه أبو سعيد بن أبي الخير، د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص٩٤، كذلك الشبلي(ت ٣٣٤هـ) والذي ذهب إلى أن محمد(ﷺ) يشفع في أمته وهو يشفع بعده حتى لا يبقي أحد في النار. د. عبد الرحمن بدوي: شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ص٤٣، أما الخوارج فاعتقدوا أن كل من أذنب ذنبًا من أمة محمد(ﷺ) فهو كافر ويخلّد في النار، ومن ثم فلا شفاعة له تخرجه عن ذنبه . انظر د. أحمد محمود الجزار : الولاية بين الجيلاني وابن تيمية، هامش ص٣٣ ولهذا انتقد ابن تيمية الذين نفوا القول بالشفاعة من الخوارج والمعتزلة. د. أحمد محمود الجزار: الولاية بين الجيلاني وابن تيمية، ص١٠٨

(165) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٢٣

(166) سورة البقرة، آية : ٢٥٥

(167) سورة يونس، آية : ٣

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والشفاعة التي يثبتها ابن رجب هي شفاعة سيدنا محمد(ﷺ) فهو أول من يشفع وأول من تقبل شفاعته، والدليل على ذلك قوله(ﷺ) "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع"[١٦٨] وشفاعة الرسول(ﷺ) لا تشبه شفاعة غيره من الأنبياء والعلماء والأولياء، لأن شفاعتهم من الصدق والوفاء والحظوظ، أما شفاعة الرسول(ﷺ) من الجود[١٦٩]لهذا ترتبط مسألة الشفاعة عند ابن رجب بمسألة التوسل ؛ لأن التوسل المشروع عنده هو التوسل بالأنبياء، وهو عنده نوعان:

النوع الأول: توسل يكون بطاعة الرسول(ﷺ) وهو فرض عين على العبد لا يتم الإيمان الصحيح إلا به، وليس توسل بذاته، وإنما توسل بالإيمان به، وبمحبته وطاعته[١٧٠].

أما النوع الثاني: من التوسل والذي يرفضه ابن رجب، فهو التوسل بغير النبي(ﷺ) ويستدل على ذلك بما روي عن عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة عندما كان يطلب منهم الدعاء، فكانوا يكرهون ذلك ويقولون: أأنبياء نحن؟ وهو الأمر الذي يعني أن هذه المنزلة لا ينبغي أن تكون لغير الأنبياء[١٧١].

إذن لا يجوز لأحد عند ابن رجب أن يتوسل بذوات الأشخاص في حياتهم أو بعد مماتهم، ومن يفعل ذلك فإن ذلك يؤدي به إلى الشرك بالله، وهذا فرق ثالث بين الولاة والنبوة عند ابن رجب، وهذا إن دلنا على شيء، فإنما يدلنا على أن مرتبة النبوة عنده أعلى من مرتبة الولاية، فالعصمة والكرامة والشفاعة تكون للنبي دون الولي، فالنبي متبوع والولي تابع للنبي، كما تكمن الولاية عنده في إتباع الرسول(ﷺ) ظاهرًا وباطنًا، فليس الولاية ادعاء وإنما هي اتباع، وأساس الطريق وبدايته إلى الله هو سلوك الصراط المستقيم الذي بعث به الرسول(ﷺ) وأفضل العباد من سلك طريق النبي(ﷺ) واتبعه في العبادة البدنية والاجتهادات القلبية، ومن ادعي ولاية الله ومحبته بغير طاعته التي شرعها على لسان رسوله(ﷺ) تبين أنه كاذب في دعواه كما كان المشركون يتقربون إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه.

---

(168) حديث صحيح، أنظر الألباني : صحيح سنن ابن ماجة باختصار السند، ص٤٣٠، رقم الحديث ٣٤٧٧

(169) د. أحمد عمر هاشم: الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها، مطبعة مركز صالح، القاهرة، د. ت، ص٥٩.

(170) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٤، ص٣٢١

(171) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٢٢

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثاً: المعرفة عند ابن رجب الحنبلي

يعد موضوع المعرفة من أهم المسائل الصوفية، بل هو الهدف الأصلي والغرض الأساسي للتصوف، وهي عند ابن رجب أصل العلم النافع، وهو العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله ومحبته والاشتغال به دون خلقه[١٧٢]؛ لذلك فإن موضوع المعرفة عنده هو الحق تعالى وحده، وهي المعرفة التي تقتضي محبته تعالى، لذا فالمعرفة هنا لا تكون إلا لله وحده عز وجل، فالحق تعالى هو الموضوع الأسمى الذي ينبغي على الصوفي أن يتوجه إليه وحده بهدف معرفته، وبالتالي فإن معرفة الإلوهية هي أكمل صور المعرفة[١٧٣]وهي أشرف أنواع العلم، هي العلم بالله وصفاته وأفعاله، فيه كمال الإنسان، وفيه كمال سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال"[١٧٤].

إذن موضوع المعرفة عند ابن رجب وغيره من الصوفية هو الله تعالى، ومن ثم فإن الغرض الأساسي منها هو أن يشهد الصوفي ذات الحق تعالى على سبيل الكشف أو المشاهدة، ولا مجال للعقل في مثل هذه المعرفة التي ينشدها ابن رجب، إذ لا طاقة للعقل في أن يجول في ميدان الألوهية، ويصعب عليه معرفتها ؛ ذلك لأن غاية ما يصل إليه العقل في مسألة الألوهية هو أن يقرر وجود موجود مطلق منزه عن صفات المحدثات، وهو مبدأ المبادئ وعلة الوجود[١٧٥] ولكن لشرف الألوهية وعلوها من جهة الذات والصفات، فإن مقامها يعز على العقل الإحاطة به بنفسه دون معونة من الله[١٧٦] لهذا ينكر ابن رجب دور العقل في الوصول إلى المعرفة الإلهية ويرى أن الصفات الخاصة بالله تعالى، والتي أثبتها لنفسه من خلال الآيات القرآنية لا يمكن إدراك كيفيتها من خلال العقل أو الخوض فيها[١٧٧] لأن الوصول إلى معرفة الله تعالى والعلم به، لا يكون إلا بالدليل

---

(172) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٢، ص٣٢١

(173) د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص١٧

(174) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٣

(175) د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام، ص١٥٨

(176) د. أحمد محمود الجزار: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، ص١٩، يتضح هذا من أقوال الصوفية ذاتهم عن العقل، فلقد ذهب ابن عطاء الله السكندري إلى أن" العقل آلة العبودية، لا للإشراف على الربوبية " الكلاباذي: التعرف على مذهب أهل الحق، ص٢١٢، وهذا ما جعل أبو الحسن النوري يعتقد أن الطريق إلى الله تعالى هو الله نفسه، ولقد أجاب حينما سئل بما عرفت الله ؟ فقال بالله، قيل فما بال العقل ؟ قال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله " نفس المصدر، ص٧٩ وانظر أيضًا الطوسي: اللمع، ص٦٣.

(177) ابن رجب الحنبلي: فضل علم السلف على علم الخلف، ص٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي بيَّنَه الله تعالى في كتابه وجاء به على لسان رسوله(ﷺ)[١٧٨] ومثل هذه المعرفة يكون أداتها القلب وليس العقل، لأن القلب إذا خشع لله صارت بين العبد وبين ربه عز وجل معرفة خاصة، فإن سأله أعطاه وإن دعاه أجابه[١٧٩] ولأن القلب هو مركز المعرفة الصوفية أو الإدراك الذوقي، فإن هذه المعرفة يتجلى فيها الحق لعبده، وفيها يحب العبد ربه[١٨٠] ولهذا فإن القلب إذا دخله النور الإلهي سكن للحق وأطمأن به[١٨١].

إذن القلب عند ابن رجب هو مركز المعرفة الذوقية الحاصلة بالكشف، فإذا تجافى قلب العبد عند دار الغرور وأناب إلى دار الخلود، تهيأ لأن يكون محلاً لهذا الكشف الإلهي الذي يجب أن يترصد له العبد في كل لحظة، فعلى قلب العبد أن يكون مستعدًا لتلقي تلك النفحات الإلهية في كل وقت[١٨٢] والكشف هنا منهج ذوقي خاص، وهو إدراك وجداني مباشر، ولا سبيل إلى تحصيله بالعلم بل بالذوق والسلوك، وهو ليس دليلًا عقليًا ولا تجربًة حسيًة، إنه نور يقذفه الله في قلب الصوفي، وهو معرفة لدنية لا علاقة لها بوسائل الإدراك العقلية أو الحسية[١٨٣].

لهذا يؤكد ابن رجب على الكسب والأخذ بالأسباب في بداية طريق المعرفة الإلهية، ولا يتحقق ذلك إلا بالإخلاص لله تعالى والتقرب إليه بأداء الفرائض ودوام الطاعة التامة له[١٨٤] فإذا التزم العبد بالشريعة أمرًا ونهيًا، ثم عمل بكل ما جاءت به الرسل، وصل إلى المعرفة الخالصة، وهي منزلة كنت سمعه وبصره[١٨٥].

ومما سبق يتضح أن المعرفة عند ابن رجب نوعان:

الأولى: تتعلق بالكسب من جانب العبد وتكون بمثابة التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفروض حتى يحبه الله، وهي درجة السابقين المقربين، وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في النوافل والطاعات، والابتعاد عن دقائق المكروهات بالورع.

---

(178) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٢، ص٢٨٦

(179) المصدر نفسه، ص٧٩

(180) د. أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٦٣م، ص٢٥٤

(181) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٥٩

(182) د. أحمد عبد المهيمن: نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء الإسكندرية، ٢٠٠٠م،ص١٣٦

(183) د. عبد الفتاح أحمد فؤاد : فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٦ م، ص٢٧٥

(184) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٢، ص٢٨

(185) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٢، ص٢٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النوع الثاني: تتعلق بالوهب، فإذا أتم العبد ما في النوع الأول من الطاعات أحبه الله، ومن أحبه الله رزقه محبته ومعرفته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، وأوجب له ذلك القرب منه، وكان له بصره وسمعه ولسانه ويديه، وهي المعرفة الخالصة أو الخاصة، وهي النوع الثاني من المعرفة، والتي تكون وهب من الله لعبده، ومما يؤكد ذلك قول الله عز وجل "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به[١٨٦].

معنى هذا أن المعرفة عند ابن رجب تبدأ كسبية من جانب العبد وتنتهي وهبًا من الله، فهي تجربة روحية تتحقق من خلال المجاهدة والعمل، فالمطلوب من العبد في بداية طريق المعرفة هو العمل والمجاهدة، وطاعة الله، والالتزام الكامل بشريعة الرسول(ﷺ) والذي يكون من نتيجته محبة الله لعبده، ووصول العبد إلى معرفة ربه، وهذا هو النوع الأول من المعرفة، وهي المعرفة الكسبية، أما النوع الثاني فهي المعرفة التي تأتي عن طريق الوهب الإلهي لمن أحبه الله لهذا، يمكن القول بأن المعرفة عند ابن رجب متقدمة على الحب، وهذا يتضح من قوله: "من عرف الله تعالى أحبه، ومن أحب الله أطاعه"[١٨٧].

وتتشكل سعادة الإنسان من المعرفة والمحبة ؛ لأن السعادة هي أعلى الكمالات الإنسانية التي يصل إليها العبد إذا ما تحقق بالمعرفة التامة لله ؛ "لأن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته هو غذاء القلوب وقوتها وصلاحها وقوامها، فلا صلاح للنفوس ولا قرة للعيون، ولا نعيم للأرواح ولذة لها في الدنيا على الحقيقة إلا بذلك[١٨٨] فمن أنس بالله واشتاق إلى لقائه فقد فاز بأعظم لذة يمكن لبشر الوصول إليها في هذه الدنيا[١٨٩].

أي أن ابن رجب قد ربط بين تحقيق المعرفة والوصول إليها والسعادة، فالسعادة الحقيقية التي ينشدها العبد تتوقف على تمام المعرفة من جانبه، لأن السعادة على قدر المعرفة أولاً وعلى قدر المعرفة يكون حب الإنسان لربه وفنائه في محبته " ومن عاش مع الله طاب عيشه ومن عاش مع نفسه وهواه طال طيشه"[١٩٠] فالسعادة لا تتحقق إلا بالتحرر من رق الجسد وشهواته، فلا صلاح للإنسان ولا نعيم له إلا في القرب من الله ومحبته، والوصول إلى هذه السعادة مرهون بضرورة كمال إيمان العبد ومعرفته بربه.

---

(186) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٢٧٤
(187) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج١، ص٢٨
(188) المصدر نفسه، ص٣٥٢
(189) المصدر نفسه، ص٣٥٤
(190) ابن رجب الحنبلي: مجموع الرسائل، ج٤، ص١٠٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نتائج البحث

ننتهي بعد البحث والدراسة للنزعة الصوفية عند الإمام ابن رجب الحنبلي إلى النتائج التالية :

أولاً: وقف ابن رجب الحنبلي موقفًا نقديًا لمن سبقه من المتكلمين، وذلك لاعتمادهم على الجدل والبراهين العقلية في إثبات التوحيد، وكان في نقده لهم مخلصاً للمنهج السلفي من حيث تقديسه للنص الديني وتقديمه له عما عداه، فهو لم يأخذ لنفسه طريقًا مختلفًا عنهم، بل صار على نفس الاتجاه من خلال التقيد بنصوص الكتاب والسنة، والتقيد بالمأثور عن الصحابة والتابعين في معاني القرآن والحديث، والاجتهاد على تمييز الصحيح من السقيم أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف على المعني والفهم ثانيًا.

ثانيًا: لم يكن ابن رجب الحنبلي خصمًا للتصوف والصوفية بوجه عام، لأنه قد أثني على التصوف السني وهو التصوف المقيد بالكتاب والسنة، كما أثنى على أعلامه مثل الإمام الجنيد وأبو سليمان الداراني، وإن كان قد انتقد بعض الصوفية، فقد انتقد طريقتهم في إثبات التوحيد، فطريقتهم فيما يرى قد أرهقت الذهن دون الوصول إلى نتيجة محددة، وهؤلاء هم أصحاب القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

ثالثًا: العبودية لله عز وجل عند ابن رجب الحنبلي هي الغاية من خلق الإنسان على وجه الأرض، وهي قضية حتمية للإنسان لا ينفك عنها بحال من الأحوال في كل زمان ومكان، والعبودية الحقة هي التي تحرر الإنسان من كل قيد، ويرتقي بها إلى درجات العز، وهي تمثل أهمية خاصة في معراج الإنسان الروحي إلى الله تعالى، فلا طريق أقرب إلى الله تعالى من مقام العبودية، لأنها أشرف أحوال العبد ومقاماته، وهي عنده تنقسم إلى نوعين: عبودية الباطن وقوامها بالفناء عن إرادات النفس والهوى، وعبودية الظاهر وقوامها في الطاعة الكاملة لله بعبادته، ولا تتحقق العبودية الكاملة للإنسان إلا من خلال تلازم عبودية الظاهر وعبودية الباطن .

رابعًا: نظر ابن رجب الحنبلي إلى النفس الإنسانية تلك النظرة التي ينظر إليها غالبية الصوفية من حيث أنها موطن الهوى ومصدر كل شر يحصل عليه الإنسان، وأن سائر أمراض القلب تنشأ من جانب النفس، فالنفس عنده العدو الباطن للإنسان، لأنها إذا تمكنت من صاحبها قتلته وهي تعد عقبة في تحقيق كماله الروحي، ولهذا يجب على الإنسان مجاهدتها لكي يحقق كماله الروحي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامسًا: يعد الذكر عند ابن رجب الحنبلي مقيدًا بالشريعة، ولا يخرج عما هو مأمور به العبد قرآنًا وسنة، ولذلك كان القرآن عنده أصل الأذكار جميعها، وكانت تلاوته بتدبر وفهم أفضل ضروب الذكر لهذا فقد ارتبط النوع الأول عنده وهو ذكر اللسان بالتحميد والتسبيح وقراءة القرآن وتدبر معانيه، والنوع الثاني وهو ذكر الجوارح بطاعة الله وتمثل أوامره ونواهيه، أما النوع الثالث فهو يعد نتيجة لما سبق ؛ لأنه يثمر المعرفة ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويدعو إلى المراقبة ولهذا اعتبر ابن رجب أن الذكر لا يكمل إلا بالفكر.

سادسًا: الخلوة عند ابن رجب الحنبلي ليست خلوة عقلية يراد بها التأمل العقلي وحسب، إنما هي وسيلة عملية ضرورية لتطهير القلب لكي ينفي من داخله كل شاغل، فشأنها شأن المجاهدة والذكر تعد سبب للوصول إلى الله تعالى، لهذا يشترط ابن رجب على من يريد الخلوة أن يطهر ظاهره وباطنه بلباس التقوى من خلال التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

سابعًا: العبودية عند ابن رجب الحنبلي لا تكتمل إلا بالباطن وما يمثله من طهارة القلب والنفس، وبالظاهر وما يمثله من عبادات، فالعبادات هي المدخل الحقيقي للاتصال بالله وشهود الحقيقة، والصلة التي تربط بين العبد وبين الله، فالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج إذا تحققت بهذه الصورة التي يقدمها لنا ابن رجب فإنها تعلو بصاحبها إلى الكمال الروحي، وتحقق الصلة بين العبد وربه، وتتحقق معها العبودية عند أدائها، فالعبودية عنده لا تتحقق إلا من خلال الكسب وبذل الجهد، ولا يتم ذلك إلا من خلال الخضوع التام لله والطاعة الدائمة له بقبول ما جاء به الرسول(ﷺ) من عند الله.

ثامنًا: يعتمد مفهوم ابن رجب للولاية على حديث الرسول(ﷺ) والذي يقول فيه "من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة " فالعبد إذا اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم النوافل قربه الله إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته، ومن ثم ولايته، ولهذا يصبح هذا الشخص المقرب مجاب الدعوة، وله عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأله أعطاه، وإذا استعاذ به من شيء أعاذه منه، وأن دعاه أجابه، فقرب الله من العبد أو تقرب العبد إلى الله عند ابن رجب ليس المقصود به قرب المسافة الحسية أو المكانية، ولكنه قرب معنوي يكون لأهل الطاعة، وهو قرب قدرة وعلم وإحاطة من جانب الله تعالى، لا قرباً بالذات أو الوجود .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تاسعًا: تعد الولاية عند ابن رجب الحنبلي كَسْبِيّة وليست وَهْبِيّة، من ثم فهي لا تتم إلا بالمجاهدة والعمل في طاعة الله، وبحسب إيمان العبد بالله وتقواه تكون درجته في الولاية، فباب الولاية لا يزال مفتوحًا أمام كل إنسان أراد الوصول إلى الله تعالى، وبالتالي تنتفي فكرة ختم الأولياء ما دامت الولاية حقًا لكل إنسان بحسب إيمانه الراسخ وعمله الصالح .

عاشرًا: تعد مرتبة النبوة عند ابن رجب الحنبلي أعلى من مرتبة الولاية، فالعصمة والكرامة والشفاعة تكون للنبي دون الولي، ومهما بلغ الأولياء في كمال العبادة والطاعة لله، إلا أنهم يظلون دون مرتبة الأنبياء، بل لابد لهم لكي يصلوا إلى درجة الكمال الروحي من الاتباع الكامل للأنبياء ظاهرًا وباطنًا، بوصفهم أي الأنبياء أعلى عباد الله في الكمال الروحي والخلقي من ناحية، ولكمال بشريتهم من ناحية أخرى، كما أن الأولياء مهما بلغ شأنهم أيضًا في العبادة والطاعة والكمال إلا أنهم يظلون دون مرتبة الصحابة والتابعين، ومن ثم كان أهل السلف الصالح هم أفضل أمة محمد(ﷺ) لكمال أتباعهم له، أما أفضل المؤمنين بعدهم، فهم الذين أمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع

أولاً: مؤلفات ابن رجب الحنبلي

١- **الحنبلي (ابن رجب)** : فضل علم السلف على الخلف، تصحيح الشيخ إبراهيم حسن الإمبابي الشافعي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٤٧ه

٢- ..... تحقيق كلمة الإخلاص، تحقيق محمود خليفة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٠م

٣- ..... نور الاقتباس، تحقيق عز الدين البدوي النجار، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٩م

٤- ..... لطائف المعارف، تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م

٥- ..... جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ١٩٩٩م، أيضاً تحقيق أبو عمرو عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٦- ..... الذيل على طبقات الحنابلة، تصحيح : محمد حامد الفقي، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت.

٧- ..... مجموع الرسائل، تحقيق ناصر النجار، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة ٢٠٠٥م

ثانياً :أهم المصادر العربية

٨- ابن الفارض (عمر): التائية الكبرى المسماة بنظم السلوك، مكتبة الفجر الجديد، القاهرة بدون تاريخ .

٩- ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت.

١٠-ابن عربي (محي الدين) : فصوص الحكم، تحقيق د. أبو العلا عفيفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج١، ١٩٤٦م .

١١-ابن عربي (محي الدين) : الفتوحات المكية، تحقيق د. عثمان يحيى، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م

١٢-ابن فارس (أبو الحسن أحمد) : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، المجلد الثالث، الطبعة الأولي،١٩٩١م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٣-ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) : لسان العرب، المطبعة الأميرية، القاهرة١٣٠٢هـ، مادة سلف، ج٣، ومادة عبد، ج٤.
١٤-الأشعري (أبو الحسن) : مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة الأولي ١٩٥٠م
١٥-..... الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار
١٦-البغدادي (الإمام عبد القاهر بن طاهر) : الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٧٣م البيان، دمشق، الطبعة الثالثة،١٩٩٠م.
١٧-البغدادي (السهروردي) : عوارف المعارف، تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ج١، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
١٨-التهانوي : مادة سلف، بكشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٩-الجرجاني (السيد الشريف) : التعريفات، تحقيق د.عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩١م .
٢٠-الجوزية (ابن قيم): مدارج السالكين، جزأن، تحقيق عبد الله عبد السميع، دار المنار الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٢١-..... : مفتاح دار السعادة، ج١، نشرة محمد بن عيادي عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولي،٢٠٠٤م
٢٢-..... : أمثال القرآن، تحقيق ناصر بن سعيد الرشيد، مطابع الصفا، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الثانية،١٩٨٢م
٢٣-الخياط (أبو الحسين): الانتصار والرد على ابن الرواندي الملحد، تحقيق د. نيبرج مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٨م.
٢٤-الرازي (فخر الدين) : معالم أصول الدين، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد الكليات الازهرية، القاهرة، بدون تاريخ .
٢٥-..... : أساس التقديس، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات لأزهرية القاهرة،١٩٨٦م
٢٦-الزر كلى (خير الدين) : الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ج٥ ١٩٧٩م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٧-الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو الملقب بجار الله) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج٣، تحقيق يوسف الحمادي، مكتبة مصر القاهرة، د.ت
٢٨-السلمي(عبد الرحمن): طبقات الصوفية، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
٢٩-الشهرستاني (عبد الكريم): الملل والنحل، ج١، تحقيق د. محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٦م.
٣٠-الطوسي (السراج) : اللمع، تحقيق د . عبد الحليم محمود، د.طه عبد القادر، دار الكتب الحديثة، القاهرة،١٩٦٠م.
٣١-العسقلاني (ابن حجر): الدرر الكامنة، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج٣، د. ت.
٣٢-الغزالي (أبو حامد): منهاج العابدين، تحقيق د. خالد أحمد حسنين، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م
٣٣-..... : إحياء علوم الدين، ج٤، تحقيق : الشحات الطحان، عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولي، ١٩٩٦م.
٣٤-القشيرى (أبو القاسم): الرسالة القشيرية في التصوف، مطبعة أولاد صبيح، القاهرة ١٩٦٦م.
٣٥-الكاشانى (عبد الرزاق): اصطلاحات الصوفية، تحقيق د.محمد كمال جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨١م.
٣٦-الكلاباذى (أبو بكر) : كتاب التعرف لمذهب أهل الحق، تحقيق أمين النواوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م .
٣٧-المكي (أبو طالب): قوت القلوب، ج١، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م
٣٨-الهجويري : كشف المحجوب، ج٢، تحقيق د. إسعاد قنديل، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م.

ثالثاً :أهم المراجع العربية

٣٩-أبو زهرة (الإمام محمد) : تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د . ت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤٠-أبو قحف (د.محمد محمود): التصوف الإسلامي خصائصه ومذاهبه، دار الحضارة للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م .
٤١-التفتازاني (د. أبو الوفا) : مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٧٩م.
٤٢-الجزار (د. أحمد محمود) : الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة الطبعة الأولي،١٩٨١م .
٤٣-..... : الولاية بين الجيلاني وابن تيمية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة،١٩٩٠م
٤٤-..... : الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، دار آتون للنشر، د. ت
٤٥-..... : فخر الدين الرازي والتصوف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م
٤٦-.....: المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٠م.
٤٧-.....: قضايا وشخصيات صوفية، منشأة المعارف، الإسكندرية، طبعة ٢٠٠١م
٤٨-الجليند (د. محمد سيد) : من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة التقدم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م .
٤٩-..... : منهج السلف بين التقليد والتجديد، مطبعة العمرانية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٥٠-الجيلي (عبد الكريم) : الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، مطبعة صبيح، القاهرة، ١٣١٦ ه .
٥١-الحفني (د. عبد المنعم) : مادة جلال، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.
٥٢-الحكيم (د.سعاد): المعجم الصوفي، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م
٥٣-السيلي (د. سيد عبد العزيز) : العقيدة السلفية بين الإمام أحمد بن حنبل والإمام بن تيمية، دار المنار، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
٥٤-الشافعي (د. حسن) : فصول في التصوف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥٥-الشرقاوي (د. حسن) : ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، عالم الفكر، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٩٢م.
٥٦-الشيبي (د. مصطفي كامل) : الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، د. ت .
٥٧-النجار (د. عامر) :الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
٥٨-أمين (أحمد): ضحى الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م.
٥٩-بدوى (د.عبد الرحمن) : شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م.
٦٠-بسيونى (د. إبراهيم) : نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
٦١-بلاثيوس (أسين) : ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.
٦٢-تركي (د. إبراهيم محمد) : فلسفة الموت عند الصوفية، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولي ٢٠٠٨م.
٦٣-..... : علم الكلام بين الدين والفلسفة، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٦٤-جعفر (د.محمد كمال) : التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً، دار الكتب الجامعية، القاهرة، ١٩٧٠م.
٦٥-حلمي (د.مصطفى): الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٤م
٦٦-..... : قواعد المنهج السلفي، دار الدعوة،القاهرة، الطبعة الأولي،١٩٩١م
٦٧-حلمي (د.محمد مصطفى) : الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، المكتبة الثقافية، القاهرة ١٩٦٠م.
٦٨-حنفي (د. حسن) : السلفية النشأة والمرتكزات والهوية،معهد المعارف الحكمية، القاهرة الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٦٩-خزام (د. أنور فؤاد) : مادة جمال بمعجم المصطلحات الصوفية، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م .
٧٠-داود (د. عبد الباري) :الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧١-زيدان (د.يوسف) : عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، سلسلة أعلام العرب رقم ١٣٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
٧٢-شرف (د. محمد جلال) : دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهب دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،١٩٩١م.
٧٣-صبحي (د. أحمد محمود): في علم الكلام، ج١، المعتزلة، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٧٨م.
٧٤-صقر (د. إبراهيم محمد إبراهيم) : دراسات في علم الكلام، مكتبة دار العلم، القاهرة ١٩٩٥م
٧٥-صليبا (د.جميل) : مادة جلال، بالمعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان بدون تاريخ .
٧٦-عبد الجبار (القاضي) : شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.
٧٧-عبد الحميد (د. محمد) :النبوة بين فخر الدين الرازي وابن عربي، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٤م
٧٨-عبد المهيمن (د. أحمد) : نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء الإسكندرية، ٢٠٠٠م .
٧٩-عفيفي (د.أبو العلا) : التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.
٨٠-عون (د. فيصل بدير) : علم الكلام ومدارسه، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة،١٩٨٢م
٨١-..... : التصوف الإسلامي الطريق والرجال، مكتبة سعيد رأفت القاهرة، ١٩٨٣م .
٨٢-فؤاد (د. عبد الفتاح أحمد) :فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم، دار الوفاء الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٨٣-محمد (د. صابر عبده أبا زيد) : منهاج أهل السنة في الرد على الشيعة والقدرية، الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٠م.
٨٤-محمود (د. عبد الحليم) : قضية التصوف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
٨٥-محمود (د.عبد القادر) : الفلسفة الصوفية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٦م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨٦-مراد (د. سعيد) : التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٩م.
٨٧-نيكلسون (رونالد) : الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
٨٨-..... : في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة د. أبو العلا عفيفي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٦٩م.
٨٩-هاشم (د. أحمد عمر) : الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها، مطبعة مركز صالح، القاهرة، د. ت
٩٠-ياسين (د. إبراهيم) : مدخل إلى التصوف الإسلامي، مكتبة طنطا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

رابعاً: المراجع الأجنبية

1) Oliver Leaman : An introduction Medieval Islamic Philosophy Cambridge university, press, 1992
2) The Encyclopedia of philosophy, volums5،Macmillan reference USA, 1996
3) The new Encyclopedia Britannica, vol.1 Seyyed Hossein Nasr: An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines, Britain, 1978

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com